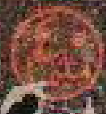


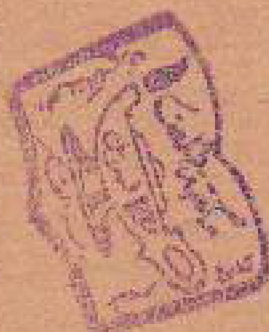
روايات عالمية

اذا جاء الشتاء

IF WINTER COMES



روايات عالمية



إذا جاء الشتاء

رواية إنسانية عاطفية

بقلم الكاتب الإنجليزي الكبير

و. هتشنسون

القسم الاول

مابل

الفصل الاول

اذا اردنا أن نتناول حياة مارك سيبر منذ كان يقيم بقرية « بيتي جرين » في الرابعة والثلاثين من عمره ، فلا مندوحة لنا من الرجوع قليلا الى الماضي دون أن نحول أبصارنا عن الحاضر ، فان بين ماضيه وحاضره لسبب وثيقا وشبها قريبا . ولقد قال محام لزنار يسمى « هايجود » لأحد اصدقائه ذات يوم :

– من تظنني لقيت بالأمس ؟ . انه صاحبنا القديم سيبر ! . هل تذكر سيبر ؟ رفيقنا في مدرسة ويكاموت التحضيرية ؟ . أجل .. هو .. ذلك الغلام الذي كنا نلقبه « الرأس المحير » لأنه كثيرا ما كان يضم حاجبيه ويقطب جبينه مستغرقا في التفكير عندما يلقي علينا ويكاموت العجوز او سواه من المعلمين شيئا ، ولا يلبث أن يقول عبارته المأثورة : « حسنا .. لست ادرى هذا المعنى يا سيدي » او « اجل .. ان الامر لكذلك »

ثم عبارته المأثورة الاخرى ..

كان ويكاموت أو غيره ينزل به او بنا جميعا عقابا يثير ثائرتنا ، ويؤجج نيران غضبنا ، فيضم « الرأس المحير » حاجبيه ويقطب جبينه على طريقته المألوفة .. ثم يقول : « أجل .. ولكني أرى ما يرمى اليه » فيصيح به واحد منا : « وما الذي يرمي اليه يا حمار ؟ » ويندفع سيبر في شرح لا نكاد نفقه منه شيئا الى ان يقول له زميل آخر : « واعجباه ! . انظروا .. انه يتصدى للدفاع عن معلم ! » فيجيبه سيبر في هدوء : « أيها النبي الاحمق .. لست أدافع عنه ولكني أقول أنه على حق من وجهة نظره ولا خير في القول بخطئه » .

على أن « الرأس المحير » كان على علاته ظريفا حقا ! .

ولقد التقيت به صدفة واتفاقا ، فان لنا معاملة يسيرة مع شركة في بلدة تيدبورو ، ومن عادتي أن اذهب الى هناك مرة في السنة أو نحو ذلك ..

ترى هل تغير كما تغيرت انت وكما تغيرت انا .. هل طلق لحيته ؟ لا .. لا .. لم يقترف سيبر هذا العمل الشنيع ! . على

التي لاحظت عليه شيئا من الهم والاكتئاب يبالغ في كتمانه ، كأنه فقد شيئا لا يدري مكانه .

وهو موفق كل التوفيق في عمله ببلدة تيدبورو . شركة « فورشون وايت وسبير » .. الم تسمع عنها قط ؟ . هذا يدل على انك لست من اركان الكنيسة يا بني ، ولو عنيت ايسر العناية بامر دينك ، لعلمت انك كلما احتجت الى شيء مما تحتاج اليه الكنيسة ، دق او جل ، وجدت ضالتك بمحلات « فورشون وايت وسبير » . هم يشتغلون في كل ما تحتاج اليه الكنائس والمدارس من آلات وكتب وأدوات ومهمات ، وليست ثمة كنيسة صالحة حقا ، او مدرسة محترمة حقا ، تفكر في ابتياع شيء من محل آخر ..

وصاحبنا سبير هو قسم « سبير » من الشركة ، وكذلك كان أبوه وجده وبقية اسلافه من قبله ، واحد الشركاء من رجال الدين فعلا ، والشركة كلها ذات صبغة دينية تلائم طبيعة اعمالها .

أمتزوج هو ؟ . اجل .. انه متزوج ، واكبر ظني انه تزوج منذ عهد غير قريب وان كان لم ينجب اطفالا ..

ولقد دعاني لتناول الطعام عنده في « بيني جرين » وهي قرية رائعة الجمال ، خلابة المناظر ، تبعد عن بلدة تيدبورو سبعة اميال في حساب المسافات ، وسبعة قرون في حساب العوائد والطباع والمظاهر وما الى هذه الاعتبارات .

هي قرية نموذجية لقرى العهد القديم ، تكتنفها البساتين والرياض ، وتتوسطها بركة عامرة بالطيور البحرية ، ومن حولها بيوت لا يكاد يتشابه منها بيتان .

وهي من السكينة والهدوء بحيث لا تكاد تعتقد ان ثمة مدينة عامرة على مدى مائة ميل منها ؛ ودع عنك مدينة تيدبورو ذات الحركة الدائبة التي لا تبعد عنها غير سبعة اميال ! .

اجل .. ينبغي أن تراها ! . على انه يجب ان تعجل بذلك اذا اردت ، فان القرية « تتجدد » او يعملون على تجديدها » ! .

قد « استكشفوها » اخيرا ! . والناس يهرعون اليها من تيدبورو والتون وشوفسبوري للراحة والاستجمام ، ويحاولون أن يجعلوا منها ضاحية ذات حدائق غناء . وقد شيدوا فعلا كنيسة جديدة ، ولكن « تجديد » هذه القرية المترامية الاطراف فيما ارى ليس بالامر اليسير ..

على أن القسيس الجديد يزعم أن الناس في لهفة الى ذلك ،

وهو يعضد هذه الحركة ويستحثها في شدة وعنف ؛ انه رجل يسمى باجشو .. يوم باجشو ، وهو رجل شاذ وان كان كل من بالقرية على شيء من الغرابة والشذوذ ..

أجل .. يجمل بك أن تذهب بأدوات التصوير ، ولا ريب أن سبير سيبتهج برؤياك اشد الابتهاج .. زوجته ؟ انها ظريفة .. ظريفة جدا ، ورائعة الجمال ايضا ..

ولكنها في رايي ليست بالمرأة التي تلائم صديقنا سبير ؛ فما كانت خلال حديثنا تبدي ايسر الاهتمام بما يستحق كل اهتمامه ، وما كان فيما لاح لي الا متبرما بحديثها الذي لا يدور الا على اهل القرية واحوالهم ..

اجل .. لقد احسست أن بينهما من التراخي والفتور ما يكون عادة بين شخصين يختلفان مزاجا ومشربا . وقد اكون في هذا من الواهمين ، بيد انى لا ازال اقول انها ليست بالمرأة التي تلائم صديقنا سبير ..

ولكن .. ما عسى ان تكون هذه المرأة التي تلائمه ؟ . ان « الراس المحير » لا يكاد يصلح قرينا وعشيرا لما في تفكيره من الغموض والشذوذ ، وحسبك أن تقدر ضيق زوجته اذا ما عقد حاجبيه ، وقطب جبينه في امر واضح لا يحتاج الى اعمال الروية وكد الخاطر ، وقال عبارته المأثورة : اني لا ارى هذا المعنى ! .

ها .. رجل عجيب حقا ، وظريف جدا ! . هل لك في كأس ؟

الفصل الثاني

في مثل هذه السهولة واليسر يحدث أمثال هذا الوجود الزاخر من الأماكن والاشخاص والأعمال ، او عن ذلك الجزء الدقيق المستغلق من الوجود الانساني : الحياة .

على ان الحياة ليست من السهولة واليسر بحيث تخالها اكثر الناس ؛ وقد كانت لغزا معقدا حارت فيه الأفهام ، وستظل كذلك الى ما شاء الله ..

انا لنقذف الى غمارها قذفا ، فنستوى على اقدامنا ، ونسير في وجهاتنا دائبين جاهدين ، ونحن نوفق حينا ، ونجور عن القصد احيانا ، ثم الخاتمة ! .

ولكن لا .. فليست للحياة خاتمة وان خيل للناس ان الموت هو نهاية الطريق ، وما الموت في الحقيقة الا حلقة اخرى من حلقات الوجود ، كالحياة سواء بسواء .

فالى اين نذهب اذا ما انطلقنا من اسار الاجساد ؟ ..
لا ندرى ! .

وفيم نجاهد ونكافح ونسير قدما الى ذلك العالم المجهول ؟ .
لا ندرى ! .

انما نخرج الى هذا الوجود كرها ، ونرحل عنه كرها ، ونحن لا ندرى فيم مجيئنا او ذهابنا ! .

مجيء غامض ، واقامة غامضة ورحيل اشد غموضا وابهاما ، ولن يتاح لنا تبديد هذه الظلمات المدلهمة المتراكبة وان جهدنا .

ولعل فى حياة مارك سيبر مع زوجته مابل ومنحاه فى التفكير اوضح الامثال على غموض الحياة واستغلاقها .

* * *

تشغل قرية « بيتى جرين » الجميلة رقعة منخفضة من الارض تمتد الى الشرق والى الغرب ، وترتفع نحو الشمال بمدرج تكسوه المراعى والرياض .. وهذا المدرج او المنحدر هو المكان الذى اتخذته « شركة تجديد بيتى جرين » مركزا لها ، واعتزمت ان تجعل منه ضاحية عامرة بالحدائق والقصور ..

وتقع بعد ذلك ضيعة نورتريب التى يمتلكها اللورد تايار ، ومنه ابتاعت الشركة الاراضى التى ستقيم عليها ضاحيتها ..

ولقد قال اللورد تايار عندما وقع عقد البيع بطريقته اللاهية المرحة : ان عظام اجدادى لتضطرب الآن فى قبورها ! .

وابتسم رجال الشركة فيما ينبغى من الاحترام لرجل غنموا منه صفقة رابحة .

وتقع غرب القرية بلدة شوفنسبرى .. اما فى الشرق فتقع تيدبورو .. اما الطريق الذى يصل بين شوفنسبرى وتيدبورو فيجرى فوق المنحدر بعيدا عن ضيعة نورتريب ، ولا يكاد يحفل بالقرية الساكنة الوادعة وان كان يميل نحوها بعض الميل ..

* * *

ولقد قال مابجود الثرثار ان قرية « بيتى جرين » رائعة الجمال ، خلابة المناظر ، وكان فى قوله من الصادقين .

ولا يكاد القادم عليها يصل الى طرفها الشمالى الغربى حتى يستقبله مصنع حدادة تقيم به وتديره اسرة تحمل اسم « ورك »

وهذا المصنع قائم بين المزارع والحقول وحده لا يجاوره بيت او مصنع آخر ، ولكنه فى هذا المكان منذ قرون ، وتديره اسرة « ورك » منذ قرون وان راى الناس وراى آل « ورك » معهم ان

هذا المبنى القائم العتيق وسط تلك الخضرة الناضرة ، كالرقعة الرثة القذرة فى الثوب الزاهى الجميل ..

وليس ثمة اليوم من سلالة آل « ورك » غير رجلين يعرفان بين الناس باسمى « ورك الكبير » و « ورك الصغير » .

اما ورك الصغير ففى السابعة والستين ، وليس يدرى احد انى يأتى ورك اصغر منه اذا ما مات ورك الكبير ومات ورك الصغير .. ولكن اهل القرية لا يشغلون انفسهم بهذا السؤال كثيرا ولا قليلا ، فانهم لعلى ثقة من مجيء هذا الخليفة المرتقب اذا ما حانت الساعة ، وان لم يعلموا اينبت من الارض ام يهبط من السماء ؟ .

ولقد جاوز ورك الكبير سن الكد والعمل ، فهو يجلس على مقعد بباب المصنع حتى ينتهى النهار فتغلق ابوابه ، ثم يسير ومن خلفه ورك الصغير يدبان على عصويهما ، حتى يبلغا البركة فيقفا بشاطئها يحدقان فى الماء كأنهما يستشفان ما تضمره لهما الاقدار فى اطواء الغيب ، ثم يعودان احدهما وراء الآخر كما اقبلا .

وطالما عجب مارك سيبر من ان اهل القرية جميعا يلاحظون ما بينه وبين زوجته مابل من اختلاف الطباع ، وتباين الأمزجة ، وتنافر الاهواء ، حتى عرف ما غاب عنه بواسطة الشيخين « ورك » .. فقد دعتهما مابل فى اول عهد زواجها لتصورهما وتحتفظ بصورتهما فى مجموعتها اذ رات فيهما شخصين فذين خليقين بالملاحظة والتسجيل .

وجاء الشيخان احدهما وراء الآخر فى الموعد المضروب ، ولكن الصورة لم تؤخذ اذ ابدى سيبر دهشته من ان الخادمة سارت بهما عند وصولهما الى المطبخ لتناول الشاى ، وسال زوجته لماذا لا يتناول الشيخان الشاى معهما فى الحديقة ؟ .

واشتعلت مابل ، كما كان سيبر يصفها ، وسالت زوجها فى حدة :

ـ هب احدا من الزائرين اقبل ؟ ..

اجاب : وما فى ذلك ؟

وأصدرت مابل امرها للخادم فى هدوء بأن تصرف الشيخين ، وزوجها يكاد يصعق دهشة وعجبا ! ..

وبعد نصف ساعة خرجت الخادم بالشيخين الى المزارع فخلت سبيلهما كأنهما بطتان بريتان ! .

وتضاحك سيبر وقال : يا للغباء ! ماذا يضيرنى لو تناولا الشاى فوق السطح ..

ولكن مابل تشاغلت عنه بقرع الجرس الخادم ..

***

تقع بيوت بنى جرين على الطريق المرتفع ، اما الطريق المنخفض فتقع عليه اكواخ القرويين وحوانيت القرية الخمسة .

اما حانوت الجزارة فلا يفتح ابوابه الا فى ايام الثلاثاء والجمعة ويأتى صاحبه من تيدبورو بما يكفى القرية نصف اسبوع من اللحوم ..

والاربعة الحوانيت الاخرى تجتمع فى حانوتين اثنين ، فاذا ولجت حانوت البقال امكنك ان تخرج منه بما يلزمك من البقالة فى احدى يديك وبصندوق يحوى حذاء فى اليد الاخرى .

واذا ولجت حانوت بائع الاقمشة كـذلك وقام لك باعمال البريد وباع لك ما انت فى حاجة اليه من الاثاث ، او زودك بما يلزم لدفنك من اكفان وتوابيت وصفائح ..

وصاحب الحانوت متلهف ابدا الى القيام بالمهمة الاخيرة على الرغم من انه لا يدعى لادائها غير مرة واحدة كل خمس سنين ، اذ ان اهل بنى جرين ممن يعمرون طويلا ..

ولقد بلغ من حرصه على اداء هـذه المهمة ان مرض ورك الكبير مرة حتى اشرف على التلف وانقطع الرجاء فى شفائه ، وكان صاحب الحانوت فى مدينة تيدبورو لبعض شئونه ، فابتاع تابوتا يلائم المريض ويطابق ابعاد جسمه اقتصادا فى الوقت ومصاريف النقل ، وعاد الى القرية وهو موقن ان الرجل قد قضى نحبه ولم يبق بينه وبين القبر غير وصول هذا التابوت ..

وكاد يصعق دهشة وذهولا عند ما بلغ القرية فكان اول من طالعه من اهلها هو ورك الكبير نفسه سليما معافى ..

ومات بعد ذلك آخرون ، ولكن التابوت كان يضيق عن بعضهم .. ويتسع على البعض الاخر ، فاضطر التاجر ان يضع به رفوفا ويستخدمه كدولاب ، ولكنه كان يرى فيه تمثالا مجسما للتسرع وعدم التبصر ..

وقد تحرى اهل القرية فى تشييد بيوتهم القوة والصلابة ، فلم يكتفوا بان يضمنوا لأنفسهم الدعة والاطمئنان ، بل ارادوا كذلك ان ينتفع بسكناها ابناؤهم وابناء ابنائهم ومن بعد هؤلاء من الابناء والاحفاد .. وكان بيت سيبر او «كروشوز» كما كان يسمى ، مشيدا من الحجر الرمادى ، وعلى عقد بابه تاريخ سنة ١٦٦٧ .

وقالت مابل ذات مرة : مايقرب من مائتين وخمسين عاما

اجاب سيبر : واقسم يامابل انه لم يكن فى اى وقت من الاوقات اتم نظاما مما هو الآن .

ولقد كانت مابل خليقة بهذا الثناء حقا اذ قامت على تنظيم البيت خير قيام ففى الطابق الاول اربع حجرات غير جناح الخدم والمرافق ، جعلت احداها للحياة العادية ، والثانية للمائدة ، والثالثة للاستقبال . ومن عجيب امر هذه الحجرات انها كانت دائما دافئة فى الشتاء ، رطبة فى الصيف ، وان كنا لاندرى ايعود الفضل فى هذا الى هندسة البيت ام الى مهارة مابل وحذقها .

اما الحجرة الرابعة فكانت ابغض مكان فى البيت كله الى سيبر ، وقد نسقتها مابل وزينتها لاستعماله خاصة . ولكنها تابى الا ان تدعوها (مغارته) وسيبر يبغض كلمة (مغارة) اذا اطلقت على المكان الذى يأوى اليه ابتغاء الراحة والهدوء .

كانت هذه الكلمة توحى اليه بمعنى الفوضى والاختلاط ، وهو مولع بالنظام والتنسيق .

كانت تحمل فى ثناياها فكرة مؤداها ان الرجل يجب ان تكون له غرفة خاصة يأوى اليها ، فيملأ جوها دخانا من سجائره ، وينثر فى نواحيها اشياءه نثرا ، ويلبس سترة صيد قديمة وخفا ، وهو يبغض هذه الاشياء جميعا ويمقتها .

ليست له سترة صيد قديمة ، ولو كانت عنده لنزل عنها للبستانى مسرورا بالخلاص منها . ثم انه لا يحب ان يلبس خفا ، ولم يضع بقدميه خفا طوال حياته . وهو يبغض فوق كل شىء الصورة التى ترتسم فى خاطره كلما سمع كلمة (المغارة) .. صورة غرفة فى شقة مفروشة ، وزوجة تقول لجماعة من النساء فى صوت متعثر : « هذه مغارة زوجى ! » ومن ينظرن اليه مبتسمات وهو ينظر اليهن فى سترة الصيد العتيقة والخف البالى !

هذه صورة يبغضها سيبر ولا يرغب فيها بحال من الاحوال .

على ان مابل لاتستطيع ان تفهم سببا لهذا النفور ، وسيبر لايمارى فى ان العرف والعادة فى جانبها . ولكنه لم يدرك فى اول الامر ما ينطوى عليه هذا الخلاف التافه من معنى دقيق عميق ، هو انه لايستطيع ابدا حملها على فهم مزاجه وميوله .

ولقد نجم الخلاف بينه وبينها حول المغارة وحول امر تافه آخر يتعلق بالخدم فى صدر حياتهما الزوجية . فقد استدعى مارك عقب شهر العسل الى جانب ابيه لمرضه ، فاسرع هو من لندن الى شروفسبرى لعيادة ابيه ، وعادت مابل الى بيت كروشوز ، حيث

عكفت على تنظيمه وتنسيقه .

ولحق سبير بزوجته بعد اسبوع اذ ابل ابوه من مرضه ، فاخذت تطوف به فى البيت معجبة مسرورة . فلما وصلا الى الحجرة الرابعة هتفت فى جذل :

ـ وهذه مغارتك !

فرقر مارك مازحا وهو يقول : بربك لاتسميها مغارة !

ـ بلى .. انها مغارتك . ولماذا لاتكون كذلك !

قال وهو يتلفت حوله : انى لااطيق هذه الكلمة .. من ذا الذى ترك هنا هذا الخف العتيق المريع !

ـ انه خف ابى ! وقد جئت به لك خصيصا اذ رايت انك لاتملك خفا مثله ..

فراح يتأمل الخفين اللذين ابلاهما ابوها الضابط الثقيل !

وما اشد ما كان سبير ينفر من أبيها الضابط الثقيل .

ثم غمغم قائلا : كلا ليس عندى مثله .. ولله الحمد !

قالت : ولكن ماذا تعنى يامارك بقولك انك لاتطيق كلمة (مغارة)؟

فمضى يشرح لها رايه ضاحكا مبسطا ، ولكنها لم تزدد الا تجهما وعبوسا ثم قالت : ما اسخف هذه الاراء !

وتولاه العجب من مسلكها حيال ارائه السخيفة ، فخرج من الحجرة قائلا : هيا بنا نر الطابق الثانى .

فاغلقت باب الغرفة وهى تقول : على كل حال .. هذه هى مغارتك .

كأنه لم يعترض ولم يتكلم !. ولقد سرت فى فؤاده موجة عابرة من القلق والاضطراب .

وفيما هما يسيران نحو السلم ، وقفت مابل عند المطبخ وطفقت تتحدث اليه عن الخادمتين فى صوت هامس تبالغ فى خفضه حتى لم يكد سبير يتبين كلماتها .

وجعلت تطرى الفتاتين وتفيض فى وصف مزاياهما وصفاتهما ، ثم اطلت فى المطبخ وقالت فى صوت جاد رزين : لقد جاء السيد ليرى نظام المطبخ .

فوثبت الفتاتان فى اضطراب ، وكانت احداهما مفرطة الطول طلقة الوجه والثانية ادنى الى القصر مقطبة الجبين . وراحت مابل تنقل عينيها من الخادمتين الى زوجها ، ومن زوجها الى الخادمتين ، كأنها تقدم تحفتيها النادرتين له ، وتعرضه على تحفتيها النادرتين .

ثم قالت : انهما شقيقتان واسمهما (جنكس) .

فلم يسع سبير الا ان يغرق فى الضحك وهو يقول :

ـ جنكس المتهللة وجنكس المنقبضة !

ولبست الفتاتان حيرتهما واضطرابهما فضحكتا كذلك ..

وسرعان ما عادت مابل وقد غاض اعجابها بالفتاتين ، ثم قالت لزوجها :

ـ كنت اوثر الا تمزح مع الخادمتين .

قال : ولكن اسميهما عجيب يثير الضحك !

قالت : ان الامر لأبعد شىء عما تقول . وهؤلاء الناس ..

وزمت شفتيها فى تقزز واستياء ، فسرت فى فؤاد سبير مرة اخرى تلك الموجة العابرة من القلق والاضطراب .



صحا مارك سبير اثناء ذلك الليل ولم يعاوده النعاس ، فراح يفكر فى تلك الأمور التافهة التى عرضت له خلال النهار ، وضم حاجبيه وقطب جبينه على النحو الذى وصفه عابجود الثرثار .

ان جنكس المتهللة وجنكس المنقبضة اسمان يحملان المرء على الضحك حقا وهو لا يجد سبيلا الى مغالبة هذا الشعور . ولكن مابل لاترى رايه ، فما عسى أن يكون امرهما معه اذا اختلفا فى جميع هذه الشئون التافهة اليسيرة !

وكان مصباح صغير يرسل نوره الباهت فى الغرفة ، فرأى سبير زوجته وهى نائمة الى جانبه ، ونظر اليها فى شغف وولهوهو يقول لنفسه :

ـ تالله ان كلا منا لعلى حق من وجهة نظره الخاصة .. فهى تحب المغارة وانا ابغضها ، وانا ارى فى اسم الخادمتين ما يبعثعلى الضحك وهى ترى غير ذلك .

ورفع بأصابعه خصلة من الشعر تهدلت على جبينها .. مابل .. زوجته ! الا ما اجمل صدرها وهو يعلو وينخفض تحتغلالتها الرقيقة ! الا ما اعظم ما يبدو فى محياها من امارات الدعة والهدوء !

انها لنام آمنة مطمئنة .

وفكر سبير : لقد كانت منذ ثلاثة اسابيع تنام فى غرفتها الموحشة ببيت ابيها ، وها هى قد هجرت أهلها وغادرت العش الذى درجت فيه وجاءت الى .

غمر فؤاده فيض من الرفق والحنان ، وعلم انهما قد امتزجا فصارا شخصا واحدا وحياة واحدة ، وانهما يمخران بحر الحياة الزاخر معا . فما عسى أن يجدا امامهما ؟.

وتحركت مابل ..

واستمر هو فى تفكيره : حياة واحدة ! حياة واحدة تمتزج فيها حياتان وطبيعة واحدة تأتلف فيها طبيعتان !

وهنا عرضت له « جنكس المتهللة ، وجنكس المتقضبة » فلم يتمالك نفسه من الضحك .

وسألته مابل والنوم آخذ بمعاقد جفنيها هل تضحك يا مارك ! ماذا يضحكك ؟

فربت على كتفها قائلا : اوه .. لا شيء .

طبيعة واحدة !.

الفصل الثالث

طبيعة واحدة ! لقد مضى الآن خمس سنوات على زواج مارك سيبر ومابل . واصبحا ينامان فى غرفتين مستقلتين ، فلم يعد فى وسع سيبر ان يفكر فى الرابطة التى تجمع بينهما وهى نائمة بجانبه .

وكانت مابل قد اصيبت بالحصبة ، فكان طبيعيا ان ينام سيبر بغرفة أخرى ، على ان هذا النظام استمر بعد شفائها ولم يشر اليه احدهما بكلمه قط اذ انه نظام طبيعى لا غبار عليه .

ثم بدا له ان ينقل كتبه الى غرفة نومه . ففاتح مابل فى ذلك اثناء الطعام وهو يخشى ان تثار مسألة « المغارة » من جديد .

ولكنها لم تزد على أن قالت : يحسن ان تعاونك الخادمتان فى ذلك .

قال : سأفعل .

اجابت : بل تترك لى اصدار الامر اليهما اذا لم تر فى ذلك بأسا ..

قال : افعلى ما يروقك !

واقبلت الفتاتان على هذا العمل بعد الظهر مسرورتين وقد راقهما من سيدهما كرم طباعه ولين جانبه ، وفيما هما تتعاونان معه على نقل احد الدواليب فوق السلم وهما تضحكان وتمزحان ، صاحت مابل من اسفل السلم : ارفعيه ياريكا .. ارفعيه ياسارة ! كيف ترفعان السير به وانتما منحنيتان هكذا ؟

وشعر سيبر والفتاتان انهم قد وبخوا !

***

كانت الغرفة تروق سيبر وتعجبه ، ولم تبد مابل اهتماما بنقل كتبه اليها . على انها عندما ذهبت الى غرفتها فى المساء كى ترتدى ملابسها لتناول العشاء ناداها زوجها ، واشار الى الكتب التى كان عاكفا على ترتيبها وهو يسألها :

— ألا يروقك هذا ؟

فنظرت مابل الى الكتب والى الغرفة مليا ثم قالت : لا بأس به ولكن نقل كتبك الى غرفة نومك لا يخلو من الغرابة ، فان لك حجرة أخرى بالطابق الاول .

قال : انك لتعلمين انى لم احب تلك الحجرة قط ولم اكن ألجها الا نادرا

اجابت . اجل .. انك لم تحبها .

ثم انصرفت الى غرفتها .

وليس فى هذا ما يخلق بالملاحظة سوى قولها « غرفة نومك » فانه اعتراف بانفصالهما عن بعضهما وعيشهما فى غرفتين مستقلتين ولم يتحدثا فى هذا الأمر بعد ذلك ، غير ان المرء لا يأبه لمعالم الطريق اثناء السير فيه ، وانما يذكرها حين يعود الى التفكير فى الرحلة بعد انقضائها .

***

كان مارك سيبر مولعا بكتبه ولع العاشق المفتون بمن ملكت عليه عقله وقلبه ، وهو لا يراها اوراقا جامدة ، وانما يعدها احياء تفيض بالحرارة والحياة ، ويطربه مجرد لمسها كما يسر الصديق بلمس راحة صديقه ، ويزعم ان فى وسعه ان يعرفها بمجرد النظر اليها دون فتحها ، كما يقرأ المرء الآيات البينات فى وجه جليسه دون ان يفوه بكلمة .

ومن الخير ان ننقل هنا فقرة مما كتبه فى مذكراته بهذا الصدد :

« احرج بعض الناس منذ ايام احد كتبى من مكانه ثم وضعه مقلوبا .. واقسم انى وجدت فى ذلك من الالم مثل ما اجد لو دخلت الغرفة فرأيت اخى مشدودا الى الجدار واقفا على رأسه »

ولقد كان اول كتاب ابتاعه فى حياته هو نسخة من طبعة رخيصة لزلفات اللورد بيرون ، ابتاعها وهو فى السابعة عشرة من عمره مدفوعا الى ذلك بما سمع عن قصيدة دون جوان ، واكب على قراءة الكتاب من اول كلمة فيه فما كاد يبلغ الصفحة السادسة والثلاثين من مجموع صفحاته التى تبلغ ثمانين ومائتين والفين ، حتى ضاق ضيقا شديدا باوزان الشعر ومعانيه ، فانتقل الى قصيدة دون جوان ولكنه ضاق بها كذلك ، وراح يقلب صفحاتها عبثا فى البحث عن الابيات التى كانت تروقه وتستهويه ، فالقى بالكتاب ، وانصرف عن القراءة .

***

وعاوده الشغف بالكتب بعد ذلك بزمن طويل . بعد ان تخرج فى جامعة كامبردج ، وطاف كثيرا فى بلاد العالم كمعلم لصبى مترف

وقيق ، وبعد ان استقر ببيت ابيه فى شوفتسبرى ليتعلم اعمال شركة « فورشون وابست وساير » فجمع هذه المجموعة التى يعنى بها ويحرص عليها .

وقد اشتد شغفه بالكتب حين تقدمت به السن الى حيث ينصرف الناس عن الادب فراح يقرأ فى الثامنة والعشرين وفى الثلاثين ، مالا يقرأ اذا قرىء الا دون ذلك بعشر سنوات حيث يسيغه الذوق ويهضمه الشباب . على انه كان يجد فى قراءاته ما يدانى الالهام ، ويجد فيها أفانين من اللذة والمتاع ، ويطرب للشعر كانه لا يزال يختال فى برود الحداثة والصبا .

وكانت كتبه خليطا من مختلف الموضوعات والمؤلفين ، فبعضها فى التاريخ وبعضها فى الاجتماع ، وبعضها لسبنسر ، او هكسلى ، او هكل ، وبعضها موجز فى العلوم ، وطائفة منها فى الادب الخالص ، وثمة مجموعات لمشاهير الكتاب والشعراء ، وطبعات مختلفة لمؤلفات شكسبير .

كانت جميعها مشتراة من باعة الكتب القديمة فى ادنبورو ، وليس بينها ما كلفه اكثر من بضعة شلنات ، ولكن الصفة الغالبة فيها جميعها هى انها تبعث المرء على التعمق فى التفكير ، وتثير فى نفسه الاحساس بالجمال ، وتدفعه الى استجلاء مستغلق الالغاز وغامض الاسرار .

كانت تحمله على التفكير فى بواطن الاشياء ، وهو يحب التفكير فى بواطن الاشياء .

وكان الشعراء يغمرون عقله بآيات الجمال ، وشد ما يستثيره ويلذبه مشاعره الجمال .

***

ومن جماع تأثره بمعانى الجمال وانطباع الافكار التى وقف عليها من القراءة ، تتكون شخصيته كلها ، وهنا تستبين الصلة التى تربط ذلك الصبى الذى كان يضم حاجبيه ويقطب جبينه ، ثم يقول : « لست أرى هذا المعنى يا سيدى » ، بهذا الرجل الذى نمت فيه تلك العادة وبلغت تمامها .

كان يرى الأشياء بعقله واضحة كاملة فوق ما يراها ببصره . وكان جمال المكان بحسب ما يرتسم بخاطره ، اشد روعة مما يبدو لعينه . وقل مثل ذلك فى كل أمر ، فهو لا يكترث لما تقع عليه عينه او يطرق اذنه ، وانما تروعه المعانى التى يستشفها ذهنه من وراء المناظر والكلمات ، وكلما كان المعنى عميقا قويا ، ازداد هو تأثرا به . وكما كان الجمال ينفذ الى اعماق نفسه ويملك عليه كل

مشاعره . فقد كانت المناظر الاليمة والوجوه الشريرة تزعجه كذلك وترسل الى فؤاده الرعب والفزع .

فقد حدث اثناء شهر العسل ان اتفق مع مابل على ركوب اول سيارة من سيارات الاوتوبيس تمر بهما اتجاها للنزهة والتسلية ، وسارت بهما السيارة الى حى من احياء المدن الوضيعة . وهما يمران على جانبى الطريق بيوتا مهدمة حقيرة مقبضة . تجلس فى نوافذها المفتوحة نساء منفردات ورجال منفردون فى ثيابهم الرثة ، وتطل من خلف النوافذ المغلقة وجوه الأطفال التعساء ، وهم جميعا يحدقون فى الطريق وقد ارتسمت على وجوههم آيات الذلة والشقاء .

ضاق صدر سبير من هذه المناظر المؤلمة وتأذت بها نفسه الحساسة وخيل اليه انه قد ولج بيتا من هذه البيوت الموحشة ، وصعد السلم المهدم المظلم ، ونفذ الى احدى تلك الغرف العارية ، وتمكنت هذه الصورة من نفسه حتى لكأنه يرى الغرفة رأى العين ، ويلمس جدرانها ، وتزكم انفه رائحتها ..

فلما عادا الى فندقهما لتناول الشاى راحت مابل تتحدث عن الرحلة ثم قالت : انى لمسرورة اذ ذهبت الى ذلك الحى ، ويحسن فى رأيى ان يعرف المرء كيف يعيش ذلك الفريق من الناس ، يا لأولئك القوم ذوى المناظر الكريهة الجالسين فى النوافذ !

ثم انفجرت ضاحكة ، فلاحظ سبير لاول مرة ضحكتها السريعة الصاخبة ، وقال موافقا : اجل ، من الخير ان يعرف الانسان شيئا عن حياتهم . ولكنى لا استطيع ان اقول ان هذه الرحلة سرتنى ، وليس فى وسعك ان تعرف مدى ما تحدثه بى هذه المناظر من كآبة وانقباض .

ــ انقباض ! كيف يمكن ذلك ؟ انك لغريب الأطوار !

ثم اردفت قائلة : نعم .. انى لمسرورة اذ ذهبت ، فانك لتعرف كيف يستطيع هؤلاء الناس المظلمة والاباء حين يلتحقون بخدمتك ، فاذا ما رأيت اى نوع من البيوت يظلهم ..

قال سبير : فانها تملك على التفكير .. أليس كذلك ؟

ــ اجل .. انها لتحملنى على التفكير .

ولكن شتان ما بين الافكار التى توحى بها هذه المناظر الاليمة الى سبير واليها !

***

كان رفاقه فى المدرسة التحضيرية يلقبونه « الرأس المحير » او

الشخص الذى يضم حاجبيه ويقطب جبينه مفكرا فى كل ما يعرض له ، ثم يخرج من تفكيره باعجب النتائج .

وقد نمت فيه هذه العادة على الايام ، فلم يكن يتقبل الاحداث والظروف على علاتها ، وانما يقلبها بحثا وتمحيصا ، ويرجع النتائج الى الاسباب ، حتى يستخلص الحقيقة واضحة ناصعة او يكاد .

ففى السنة الخامسة لزواجه بمابل لم يستقل عنها بغرفة نومه فحسب ، وانما ايقن كذلك انها تختلف عنه فى اساليب التفكير اشد الاختلاف ، ولا يكاد يوافق نظرها نظره فى شأن من الشئون .

وكان حين يخلو الى نفسه يستعرض صلاته بمابل فيما يستعرضه من امور الحياة الغامضة المستغلقة ، ويحاول ان يستجلى السر الكامن وراء هذه الظواهر جميعا ، فانه ليعلم ان ثمة علة خفية وان اعياه الوقوف عليها ، والنفاذ الى اعماقها ..

مثله فى ذلك مثل الرجل الذى يمد يده من ثغرة فى الباب يتحسس المفتاح فى الجانب الاخر ، فهو لا يرى المفتاح ولا يلمسه ولكنه يعرف انه هناك فيجد فى طلبه .

وان سيبر ليعلم ان لاحاجى حياته ، بل الحياة الانسانية كلها ، مفتاحا قد يضع عليه يده يوما ما .

الفصل الرابع

تصغر مابل زوجها بسنتين ، وقد كانت فى الخامسة والعشرين حين تزوجها ، وانمت الثلاثين يوم اتخذ كل منهما لنومه غرفة خاصة .

وكانت الضحكة السريعة الصاخبة التى لاحظها سيبر عند زيارتهما لذلك الحى الوضيع فى لندن فى اول عهدها بالزواج من اظهر صفاتها .

فهى تضحك فجاة ، وتغرق فى الضحك ، اذا ما خالجها السرور دون أن يسبق ذلك شيء من الابتسام . وهذه الضحكة تنطلق من فمها دون أن تفقد اساريرها شيئا من جدها وصلابتها .

وعلى هذا النحو كان احتدام الغضب فى صدرها او « اشتعالها » على حد تعبير سيبر ، فهى « تشتعل » فجاة دون تمهيد ودون ان تتجلى بوادر العاصفة فيما يسبقها من الكلام ، كما تضحك فجاة دون ان تنبسط اساريرها او يتراءى على شفتيها شبح من الابتسام

غير ان سيبر يستطيع فى حالة « اشتعالها » ان يتبين فى قسمات وجهها بعض النذر التى تؤذن بهبوب العاصفة ولعل هذا هو كل الفرق بين حالتى الرضا والغضب .

كان وجهها اذا ما « اشتعلت » ينقبض ، وجوانب انفها تتقلص تقلصا عجيبا . فلقد كانت مابل مستطيلة الانف ، وقرأت مرة ان الانف المستطيل من سمات الارستقراطية ، فراحت تربت على انفها فى اعزاز واعجاب .

وكانت بشرتها صفراء ، وقد يكون للصناعة فى هذا اللون نصيب غير قليل ، وقسماتها متناسقة دقيقة ، اما عيناها فليس فيهما معنى غير عادى .

وهى ابنة نائب اسقف تيدبورو ، وقال الناس يوم تزوجها سيبر انه اقترن بفتاة جميلة ظريفة ، ومن الخير ان نذكر ما قال هابجود الثرثار فى هذا الصدد .

ومابل تميل الى مجالسة الرجال ، وتميل الى مجالستها الرجل وتحب كذلك محافل النساء اللواتى يماثلنها أو يفقنها فى العمر ، ولكنها لا ترغب قط فى الاختلاط بالفتيات ، سواء أكن متزوجات أم غير متزوجات .

وهى من ذلك الفريق من الناس الذى يتحدث عن اتفه الشئون فى لهجة الجد والاهتمام والدهش ، ويتناول اعقد المسائل فى اشد الاستهانة والاستخفاف فليس فى الميلاد والحياة والموت شيء جل أو قل من الغرابة او الغموض فى نظر مابل ، اذ اى شيء من الغرابة والغموض فى أن يولد المرء ويعيش ويموت ؟

كذلك لا تستطيع ان ترى شيئا من الغموض فى الحشرة الدائبة المجدة ، ولا فى استكانة الزهرة النابتة عند جذع الشجرة العظيمة .. فالحشرة تقتلها ، والزهرة تقطفها ، واين بعد ذلك ما تزعمه من غموض واستغلاق ؟

اما غاية الحياة فى رأيها فهى العيش فى وسط يماثلها ، والقياس الوحيد للمرأة او الرجل عندها هو هل هما من طبقتها ؟ ولا عبرة بعد ذلك بالمزايا والصفات .

وانها لتدعو الطبقة التى دونها ثقافة وتهذيبا « الطبقة الدنيا » وهى قانعة بالاقصاء عن هذه الطبقة ما دامت لا تتعرض لها .

على انها مع ذلك تحب من أفراد « الطبقة الدنيا » بعض الصفات . وما اشد حبها للبائع المؤدب ومنظفة المداخن المؤدبة والعامل المؤدب . وليس يعدل سرورها بالاجتماع بافراد طبقتها غير سرورها بتقبل مراسيم الادب ! والادب عندها مرادف الذلة

والعبودية) ممن يقومون على خـدمة طبقتها كالخدم والسـاسة والبستانيين والنجارين وسعاة البريد ورجال الشرطة . وما فكرت قط في كثرة عدد الطبقة التي حبتها الاقدار بسعادة القيام على خدمة طبقتها ، وما كادت لتعنى بالتفكير في ذلك لو حدثها احد الناس به !

لم يدر في خلدها يوما ما ان افراد هذه الطبقة لهم بيوت وابناء ولم يدر بخلدها انهم مثلها من بني الانسان ينشدون السـعادة والطمانينة لانفسهم ولمن يلوذ بهم ، هم في عرفها قوم مبذرون مسرفون ، وكل محاولة يبذلها بعضهم في سبيل الترفيه عن انفسهم والاخذ من مباهج الحياة بنصيب ضئيل ، لا يثير في نفسها غير مشاعر السـخرية والاستهزاء !

***

ولم تكن مابل في قليل ولا كثير من تلهب العاطفة واتساع آفاق الخيال وهي لا تدرك مما تبصر او تسمع او تقرا غير الصـورة الجافية التي تحصل من الرؤية او السماع او القراءة .

فاذا ابصرت بابا مثلا ، لم تر فيه غير عارضة من الخشب بها مقبض وثقب للمفتاح . وقد يقال ان الباب ليس حقا غير عارضة من الخشب بها مقبض وثقب للمفتاح ، وهذا هو نفس ما تقوله مابل لو جوبهت بذلك الاعتراض .

غير ان الباب في الواقع اشد الغاز الحياة غموضا واستغلاقا ، لما يحجب من الاسرار ، وما قد يكون جاريا وراءه من خطير الاحداث .. اما مابل فلا يدور بخلدها ان ثمة شيئا يحتجب خلف ما ترى .

فالمريض العاني الذي يتجرع غصص الالم ، لا يزيد في نظرها عن انه « طريح » .. عاجز عن العمل .. كالقلم اذا انكسر سنه !

والموسيقى صوت ، فاذا لم تكن صوتا كانت موسيقى فقط !

والكتاب قصة ، فاذا لم يكن قصة كان كتابا فحسب !

والزهرة نوع من انواع الزينة ، والشعر فن من فنون الكلام لا يؤدي معنى ، ولا يقصد به اداء معنى !

والعمل المجيد يتناسب جلاله مع المركز الاجتماعي للشخص الذي قام به ، فموت الكابتن سكوت في القطب الجنوبي حـدث رائع لانه من الطبقة العليا اما الكارثة التي نزلت بعمال منجم شنفقيد . في نفس العام فلا تستحق منها غير النظرة السريعة والاسف العابر ..

ومابل لا يخالجها شيء من عرفان الجميـل ، ولا يعرف الى نفسها سبيلا . والهدية في رايها هدية لا اكثر ولا اقل ، كما ان الرطل من اللحم رطل من اللحم لا اكثر ولا اقل . فهي تقول لصاحب

الهدية « اشكرك » في مثل اليسر والسهولة اللذين تاكل فيهما رطل اللحم !

اما عواطف صاحب الهدية وبواعثه فامر لا تشغل نفسها بالتفكير فيه قط !

والصدقة في رايها هي اطعام المسكين وكسوته . والسخاء هو تقديم المال للغير . والانانية هي امساك المال عن الغير .

وما يدور في خلدها قط ان الاحسان الحق هو الذي يصدر من القلب .

والسخاء الحق هو سخاء العاطفة ، والانانية الحقة هي الكامنة في النفس ..

وما كانت لتفهم ذلك لو حاول احد ان يشرحه لها ..

على انها كانت في نظر الناس كثيرة الظرف ، خليقة بالتقدير والاحترام .. وان تجردت من دقة الفهم ، ورقة العاطفة ، وحياة الوجـدان ..

ومتى كان للفهم والعاطفة والوجدان وزن في تقدير الناس ؟ متى .....؟!

لقد كانت مابل موضع الحب من كثير من الناس ، كما كان كثير من الناس موضع الحب منها .

الفصل الخامس

بدات شركة «التجـديد بيتي جرين» انشاء ضاحية الحدائق في سنة ١٩١٠ فلم يكن لها ظل في الوجود سنة ١٩٠٨ عندما مرضت مابل بالحصبة واختصت بغرفة قائمة بذاتها لنومها ، ولم يكن احد من اهل بيتي جرين يخطر بباله في ذلك الحين ان خط السكة الحديد سيخترق فردوسهم الوادعة السـاكنة .. ولو كان لهم الخيار لما ارتضوا تدفق الوافـدين عليها من اخلاط الزمر ، ولاثروا حياتهم المطمئنة الاولى ..

وكان سيرل يستعمل دراجـة في غـدوه ورواحه بين بيته في بيتي جرين ومركز الشركة في مدينة تيدبورو ، وخطر له ذات يوم وهو عائد الى بيته ان هـذه الرحلة تفصل بين العالمين اللذين يعيش فيهما : عالم بيته ، وعالم عمله .

وما زال هذا الخاطر يقوى ويتاصل في نفسـه حتى بات يرى فيها راحة ومتاعا لانها تبتعد به فترة من الوقت عن هذين العالمين او عن الوجود اجمع ، وتشعره بالحرية والانطلاق ..

فلم يكن يبلغ بيته في بيتي جرين ، او مكتبه في تيدبورو ، حتى

بداخله شيء من الهم والانقباض ، ويحس انه هوى من ذروة الحرية الى حضيض المشاغل والهموم ..

وهكذا تعمل أيسر الأشياء في تكوين احوالنا الفكرية دون أن نحس او نفطن اليها ..

وقد كان سبير عندما يستبد به هذا الخاطر .. ونتقله التحول من الحرية المطلقة التي يستمتع بها في رحلته اليومية على دراجته ، الى حقائق الحياة التي كان يرى نفسه غريبا عنها ، ينظر الى ما يعرض له من الشئون في جمود واستخفاف كأنها اوهام لا أثر لها في عالم الحقيقة .. وكثيرا ما تبين فيه شركاؤه ذلك الاستغراق ، وكثيرا ما قالت له مابل : انك لتبدو احيانا عويصا مستعصيا على الفهم !

* * *

بيد ان تلك الرحلة اليومية قد ادت بسبير الى نتيجة اخرى ؟ فقد اتخذ منها « الهية صبيانية » كما قالت مابل .

بدا لسبير ذات يوم عندما بلغ المنحدر المفضي الى التربة ، ان يرفع قدمه عن « بدال » الدراجة ، ويتركها تنطلق به من تلقاء نفسها ، فتقف على كثب من الابواب . ثم بدا له ان المدى الذي تقطعه الدراجة على هذه الحال يختلف كل يوم طولا وقصرا ولا يكاد يتفق مرة واحدة في الاسبوع ، فوجد لذة وتسلية في المثابرة على هذه التجربة ، وراح يقيم العلامات عند المدى الذي يبلغه كل يوم.

كان هذا شغفا صبيانيا دون ريب ، وقالت مابل انه صبياني عندما نبهها الى عنايته بهذا اللون الغريب من الوان التسلية . ثم بلغ الرقم الاعلى ذات يوم فهرع الى المطبخ يسأل عن فأس الخشب في شيء من اللهفة والاهتمام . واتفق ان كانت مابل هناك فسألته عما يريد ان يفعل بها ، واجاب مازحا :

— اني لأزداد الآن بدانة ولكني المس انى لا اريد ان اتخفف بها مما يثقلني من السمنة .. انما ضربت رقما قياسيا عاليا بدراجتي ..

قالت مابل : أهو ذاك ؟

وخرج الى ساحة البيت و (جنكس) المتهللة واختها المنقبضة تنظران في اثره باهتمام شأنهما في كل عمل يصدر عن سيدهما الرقيق المحبوب ، غير أن مابل لم يلبث أن زجرتهما قائلة : ان مكان الفاس ليس بالمطبخ بل بمخزن خشب الوقود يا سارة !

فاخفت سارة ابتسامتها واجابت : سمعا يا سيدتي .

وبعد هنيهة سمعت مابل طرقا مرتفعا فخرجت تستطلع سببه ، واذا بها ترى سبير منقبا على الارض وهو يدق وتدا في جد واهتمام .. ورفع بصره اليها قائلا : هل جئت كي ترى رقمي الجديد ؟ حسن . ما قولك في هذا المجهود النظري .. لقد وصلت بالأمس الى هنا ..

قال ذلك ثم سار الى حذاء بيت مستر فارجوس ووقف مبتسما وهو يقول : وقد كانت الظروف واحدة في اليومين ولكن الرقم قلما يكون واحدا في يومين متواليين . اليس هذا عجيبا ؟

فتعجب له البوابة وهي تقول . وما الذي تراه في هذا من العجب ؟

قال : اوه .. حسنا !

على انه لم يكد يبعث نفسه من الدهشة عندما جاء في اليوم التالي فرأى الوتد مطليا بطلاء ابيض ، فاندفع الى حيث تجلس مابل هاتفا : هل طليت وتدي ؟ ما أجمل هذا منك !

فرفعت اليه عينيها وقالت : وتدك ؟ اي وتد ؟

قال : وتد الرقم القياسي .. الم تطليه بطلاء ابيض ؟

— كلا .. لم افعل شيئا من ذلك .

وعلم بعد ذلك ان (جنكس) المنقبضة هي التي فعلت ذلك ارضاء لسيدها ، وهكذا كان التنافر في الطبع بينه وبين مابل يتناول حتى وجوه اللهو والمرح ، وهكذا كانت الخادمة أسرع من سيدتها الى فهم سيدها والعمل على ارضائه !

الفصل السادس

لم يكن في الجانب الآخر من رحلة سبير اليومية ما يغريه باللهو والتسلية ، فان مخازن الشركة ومتاجرها في تيديورو تقع في شارع تجاري كثير الزحام ، وسبير يترجل عندما يبلغ اوله ويسير الى مكتبه على قدميه وهو يجر دراجته .

وشركة فورشون وايست وسبير تشغل بناء محترما ، في شارع محترم ، ولها كذلك صيت ذائع في الأوساط الكنائسية والمدرسية ، وهل يمكن ان يجهل احد ممن يعنيهم شئون الكنائس اسم هذه الشركة ؟ وهل يمكن ان يجهله كذلك احد ممن يعنون بالمدارس والتعليم ؟

لقد قيل بحق انك لو مكثت برهة بمحلات شركة فورشون

وايست وسيبر ، لالتقيت ثمة بكل ذوى الخطر من رجال الدين والتعليم .

وكانت الطبقة الاولى من مبنى الشركة مخصصة لاعمال البيع على الحساب ، وفوقها مكاتب مديرى الشركة الثلاثة ، وهم القس سباستيان فورشون ، ومستر توايننج ، ومارك سيبر . وفيما بين هاتين الطبقتين غرف قليلة الارتفاع يشغلها الكتبة .

وكان مكتب القس فورشون فسيح الجوانب ، يفضى اليه سلم من حجرة العرض ، ويقع على جانبيه بابان يؤديان الى مكتبى سيبر ومستر توايننج .

وكثيرا ما يرتقى السلم المفضى الى مكتب مستر فورشون اناس من ذوى المكانة والجاه ، ولكن الكتبة لا يستعملونه قط ، وانما يرتقون سلما عند الباب الخلفى الذى يدخلون منه ، وينزلون الى متاجر الشركة من سلم الكتبة الذى يفضى فرع منه الى المكتبة ، ويفضى الفرع الآخر الى غرفة نموذجية للفصول المدرسية .

ولبس يروق الكتبة هذا النظام الذى يكلفهم نصبا غير قليل فى اداء اعمالهم ، ولكنه يروق القس فورشون الذى يحب ان تكون « عينه » على كل شيء .

على ان هذه العادة ، عادة وضع كل شيء تحت « عينه » ، كانت ابغض الاشياء الى مستخدميه .

ولقد اطلقوا عليه اسم يونان او يونس ، لان زياراته لهم كانت تحمل فى ثناياها دائما الشر والاذى ، ولان بطنه الضخم كان (فى زعمهم) يشبه بطن الحوت العظيم !

وان مستر فورشون ليشبه الحوت حقا فى كثير من الصفات ، والناظر اليه يخال ساقيه القصيرتين بلا فخذين ، ووجهه الضخم الطويل الذى تتدلى من نهايته السفلى لحية رمادية منمشة يبدو كأنه مثبت بين منكبيه بغير عنق .

ولصوته لفحة القر او مس الثلج ، وان برئت عباراته من الخشونة والغلظة ، ولا يسع المرء حين يسمعه الا الشعور بان صاحبه عنيف قاس على ما فى كلماته من نعومة ولين .

ولقد تولى القس سباستيان فورشون عمله بالشركة منذ كان فى الثامنة والعشرين ، وهو الآن يناهز الثانية والستين . وكانت ادارة الشركة حين تولى عملها تكاد تنحصر بين يدى اسرته

فاصبح فى غضون الاربعة والثلاثين عاما التى قضاها بها المسيطر الوحيد على ادارتها بفضل شخصيته القوية .

كان فى اول عهده بالشركة شابا صادق العزم . قوى الارادة فاضاف الى هذه الصفات مبلغا ضخما حصل عليه بواسطة الزواج . وحصل فوق هذا المبلغ على ارملة شوهاء !

وما تهيأت له هذه الاسباب ، حتى شرع فى الاستئثار بادارة الشركة دون ايست وسيبر (وهو جد سيبر الحالى) .

اما ايست فقد باعه نصيبه باكمله وانقطعت كل صلة له بالشركة واعمالها وكان سيبر يملك خمس الشركة ، وهو فى شغل شاغل من خوف الخسارة والافلاس . والجأ القس فورشون الى وسيلة بديعة لتسكين هواجسه ، فاتفق معه على ان يأخذ من الارباح حظا معلوما لقاء الخمس الذى يملكه ، دون ان يكون له اى شأن فى ادارتها ، او يتحمل شيئا من خسائرها ، وبعبارة اخرى اصبح شريكا مرفوعا .

وهذا الخمس الذى لا نصيب له فى ادارة الشركة هو الذى ورثه والد سيبر من جده ، وورثه هو عن ابيه ، فاضحى مركزه فى الشركة مركز موظف لا اكثر ولا اقل .

***

كان القس فورشون قد وعد ان يشرك سيبر فى ادارة الشركة الفعلية ، وكان سيبر يرغب فى اتمام هذا الوعد اشد الرغبة .

وكان عمل سيبر بالشركة ادارة قسم النشر والطبع بها . وعمل توايننج ادارة مصانع اثاث الكنائس والمدارس . واما فورشون فله الاشراف على عملهما جميعا وعلى كل صغيرة وكبيرة بالشركة ، وهو يمانع اشد الممانعة فى اتصال احد من العملاء بسيبر او توايننج ، وحجته فى ذلك ان عليهما الانتاج وعليه هو التصريف، فمن شأنه وحده استقبال العملاء وتوقيع الرسائل التى ترسل اليهم .

على ان سيبر كان يعارض فى ذلك اشد المعارضة فيما يختص بالفرع الذى يديره ، فقال يوما فى احتجاج رسمى : اذا اخرجت كتابا جديدا فمن المعقول ان اتولى اقناع العملاء بمزاياه اذا جاءوا ، وارد على رسائلهم اذا كتبوا .

فاستدار له فورشون فى مقعده وقال : انك لتكاتبهم .

— ولكنك توقع رسائلى وكثيرا ما تغير فيها .

— هذه مهمتى ، وتلك رسائلى ، وفى وسعنا ان نعود الى هذا

الموضوع عندما نشترك فى الادارة .

فضحك سيبر ضحكة مبتسرة وقال : ومتى يكون ذلك ؟

ـ ليس اليوم ..

ـ ان كل ما يعنى قوله هو ..

فرفع القس فورشون يدا كزعنفة الحوت ولكنها رشيقة بيضاء وقال :

ـ كفى ، لقد قضيت

واشاح سيبر بوجهه وهو يفتح الباب باحدى قدميه ويغلقه بالاخرى ، اذ كان يعرف ان هذا يغيظ فورشون ويحنقه . وما كان سيبر يخشى فورشون على الاطلاق مع علمه بانه يملك فصله من الشركة ، وقد علم فورشون هذا فكان يبغضه ويحترمه فى آن واحد .

اما توانيتنج ، زميل سيبر ، فكان يرهب القس فورشون ويخشى جانبه اشد الخشية ، ولا يرى باسا فى ان يوقع رسائله ويستقبل عملاءه ، بل لقد كان يذهب الى ابعد من هذا المدح فيزجى شكره له على تحبير الرسائل وعقد الصفقات مع العملاء ، كما يشكره على تدخله فى اخص شئون المصانع التى يديرها .

وكان القس فورشون يحب توانيتنج ، ولكنه لم يكن يحترم توانيتنج !

« * »

كان سيبر يرغب فى الاشتراك فى ادارة الشركة رغبة شديدة ملحة ، لانها تضمن له التحرر من سيطرة القس فورشون ، ولانها فوق ذلك ستكون بمثابة تقدير لعمله واقرار بفضله ، وهيهات ان يقر فورشون له بالفضل الا كارها مرغما ، وما اشد ما يرضى سيبر هذا التكره والارغام .

ولم يكن نشر الكتب العلمية « لاستعمال المدارس » من اعمال الشركة قبل ان يلتحق بها سيبر ، فالمشروع من بنات افكاره ؛ وقد وافق عليه القس فورشون اول الامر فى تردد واحجام شأنه فى كل عمل لا يعود فضله اليه .

وقد لقى المشروع من الرواج والنجاح فوق ما قدر له ، وكانت الكتب التى تخرجها الشركة فتحا جديدا فى المحيط الثقافى ، اذ جعل سيبر همه كله الى تيسير العلم على المتعلمين ، وتمهيد سبيله العويصة الملتوية امام صغار الناشئة .. وكان فوق ذلك يحسن اختيار الموضوع والاسلوب ، كما يحسن اختيار المؤلف لكل موضوع .

فلما تناولت الصحف الثقافية هذه الكتب بالحمد والثناء ، وراحت تطرى العقل المستنير الذى يقوم على اخراجها ، ابتهج القس فورشون ايما ابتهاج لظنه انه صاحب هذا العقل المقصود بالمدح والاطراء ، او لان الناس يعتقدون ذلك على الاقل .

ولكى يعرب عن تقديره لمجهود سيبر الحميد وعده باشراكه فى ادارة الشركة فقال له : لعل والدك اخبرك اننا كنا اتفقنا على اشراكك فى الشركة اشراكا فعليا حين تكبر ونرى منك ما يؤهلك لذلك ، وانى لارى الآن انك اهل له وسارد عليك بعض مجد بيت سيبر فى الشركة متى وصلت بفرع النشر الى مستوى بقية اعمال الشركة .

فلما اراد سيبر ان يشكره قاطعه قائلا : كفى .. قد قضيت

وما وافت سنة ١٩١٢ حتى شعر سيبر ان فرع النشر قد بلغ مستوى بقية الفروع ، ولاسيما اذ احرز كتابان فى الرياضة يحملان اسمه بالاشتراك مع مؤلف آخر اكبر قسط من النجاح والذيوع . وشجعه هذا النجاح الباهر على اخراج كتب اخرى فى التاريخ تنحو منحى جديدا ، وتطرق ابوابا من البحث لم يطرقها رجال التعليم من قبل . فلم تكن قاصرة على ايراد حوادث التاريخ القديم شان كل ما سبقها ، وانما تناولت فيما تناولت كثيرا من الشئون الاجتماعية والدستورية .

ثم خطر له خاطر جرىء ، فاعتزم ان يضع كتابا جديدا ؛ وكانت الافكار التى جرى بها قلمه من الروعة والجلال بحيث لم يكد يصدق انها من وحى قريحته .

كان اسم الكتاب فيما يعتزم « انجلترا » .. « انجلترا » فقط .. واليك اول ما خطه براعه من هذا الكتاب :

« انجلترا هذه ملك لك لا ينازعك فيها احد . ولقد اراد كثير من الاعداء الاستيلاء عليها لانها اعظم ممالك العالم روعة وجلالا ، فلم يستطيعوا لانها ملكك ، ولانها حفظت من اجلك . وهذا الكتاب يريك كيف صارت ملكك ، وكيف حفظت لك ؛ لا بسطوة ملوكها ودهاء ساستها وعظمة قادتها فحسب ، ولكن بقوة الشعب الانجليزى . ولقد تلقتها الاجيال عن بعضها حتى وصلت اليك . كما تنتقل الشعلة المتالقة من يد الى يد . وستسلمها انت بدورك الى من يخلفك من الاعقاب . ولقد زاد اسلافك شعلتها تضرما وتالقا ، وستزيدها انت كذلك تضرما وتالقا ، ولقد عاشوا ومضوا ، وستعيش انت وتمضى . ولكن انجلترا وحدها ستبقى وتخلد على الآماد والدهور . »

الفصـــل السابع

ابت مابل الآن تسمي كتب سبير « تلك الكتب المدرسية » فانصرف عن محاولة حملها الى الاهتمام بها والنظر اليها بعين الجـــد .

ولقد آلمه قولها هذا على انه بعد اعمال الفكر لم يلبث ان قال لنفســـه :

ـ تالله انها لكذلك . كتب مدرسية ، فغيم الغضب والسخط ؟

على ان « انجلترا » سيكون شيئا آخر ، ولن تصفه مابل بانه « كتاب مدرسي » وراح سبير في نشوة تحمسه يكثر من التحدث اليها عن كتابه المنتظر حتى جاء ذكره في عرض حوار قام بينهما حول قانون التأمين الاهلي الـذى اثار اذ ذاك في البلاد ضجة عظيمة .

فلقد قالت له مابل يوما ابان اهتمام الناس بهذا القانون الذى كان اهل الطبقة العليا يصفونه بانه « لحس الطوابع من اجل لويد جورج » : ان بعضنا ولله الحمد ليبرأ بنفسه عن اختلاس شيء من اجور اولئك المساكين .

وكانت تحسب انها ترضى زوجها بهذا القول ، فانه دائما في رأيها يدافع عن الخدم ومن اليهم من افراد تلك الطبقة .

بيد ان سبير سألها : ماذا تعنين ؟ الم تحملي الخادمتين على دفع اشتراكهما ؟

اجابت : كلا ، وارجو الا افعل ذلك ابدا . انى ادفع عنهما الاشـــتراك .

ـ ولكن هذا خطأ يا مابل . خطأ شنيع .

فحملقت فيه مابل وهي تقول : انك لعســـر على فهمي يا مارك . ماذا تعني بقولك انه خطأ ؟

ـ هو ليس من الانصاف للفتاتين .

ـ ليس من الانصاف لهما ان ادفع اكثر من اجرهما ؟

ـ اجل .. ليس من الانصاف . الست ترين ان اكبر ما يتوخاه القانون من الاغراض هو مساعدة هؤلاء الناس على تعلم الاقتصاد والاحتياط لايام الشدة والعناء ؟ الا ترين انه يريد ان يعتزوا باستقلالهم والاعتماد على انفسهم ؟ فاذا دفعت عنهم ما يجب ان يقوموا هم بدفعه سلبتهم استقلالهم .

فانفجرت ضاحكة ضحكتها السريعة الصاخبة وقالت :

ـ لعلك اول من يرى فيمن لقيت من النـــاس ان روح الاســتقلال في الطبقات الدنيا تستحق المؤازرة والتشجيع !

ومضى سبير يشرح لها ما يرمى اليه القانون من انماء روح التعاون فيما بين افراد الطبقة الفقيرة وبين انفسهم ، وفيمـــا بينهم وبين الدولة ، ثم قال :

ـ ولقد عالجت هذا الموضوع في كتابي .

قالت : اى كتاب ؟

اجاب : كتاب « انجلترا » بالطبع . ذلك التـــاريخ الذى حدثتـــك عنـــه .

قالت : أوه .. ذلك الكتاب المدرسي .. وددت لو انك كتبت قصـــة .

حملق سبير مبهوتا . ثم قال : حسنا !

ولم يتحدث اليها بعد ذلك قط عن الكتاب . على انه كان في اشد الحاجة الى محادثة من يقدر ما يعتلج في خاطره ، ويعطف على آرائه وافكاره ففي مثل هذا العطف راحة له وقوة ، ومنـــه يستمد الوحي والاحلام .

ووجد سبير هذا التعاطف العقلي عند قوم من جيرانه طالما تحدثت مابل عنهم في سخرية واستخفاف قائلة : ماذا تجد عند مستر فارجوس هذا ، وعند ذلك الشاب بيرش وامه العجوز الخـــالدة !

على ان سبير يجد عند هؤلاء القوم كثيرا مما ابحـــاه تطلبـــه عنـــدها !

كان مستر فارجوس ، جارسبير ، كهلا قصير القـــامة ، نحيف البنية ، رمادى البشرة ، رمادى الشعر ، رمادى الثياب . وله زوجة ممتلئة الجسم ، وافرة الطول ، متألقة البشرة . وسبع بنات عجاف ، يشوب لونهن بعض الاصفرار .

وكبرى بنات فارجوس تناهز التاسعة والثلاثين من عمـــرها المبارك ، اما الصغرى فقد اتمت الثامنة والعشرين ، ولكنهن يأبين الا ان ينادينه « بابا » كما يأبى الا الاكثار من هذا النداء .

وتختص كل فتاة منهن في البيت بعمـــل معين ، فلاحداهن المصابيح ، ولاخرى قضبات المائدة ولاخرى الدجاج وهكذا . وهن على اختلاف مهامهن عاكفات على عملهن ابدا ، وتقـــوم كل منهن فوق عملها بترتيب غرفتها الخاصة ، ويقمن جميـــعا فوق ذلك بأعمال الحديقة من سقى وتشذيب واصلاح . على ان لكل عمل من هذه الاعمال ساعة بعينها لا يعدوها ، وفي وسع كل فتاة من

فتيات فارجوس أن تنبئك بالضبط بما تفعله كل فتاة أخرى في أية ساعة من ساعات النهار أو الليل .

وفي هذا النظام الدقيق كان أهم عمل لمستر فارجوس هو الفرار من وجه زوجته وبناته ، وانه لعمل يستنزف كل ما أوتي من قوة وذكاء وحيلة .

وكثيرا ما يراه الناظر من نوافذ بيت سبير الخلفية وهو يتسلل بين أشجار الحديقة مجانبا محاذرا لئلا يقع في قبضة العاملات في الحديقة ، وكثيرا ما كانت بعثات الاستكشاف تتخلى عن أعمالها للبحث عن الوالد المفقود !

أما حين لا يشغله الفرار من وجه زوجه وبناته ، فانه يعكف على حل ألغاز الشطرنج التي تنشرها الصحف ، وكثيرا ما يرى جالسا قبالة سبير ينفثان سحب الدخان من غليونيهما ، وكلاهما غارق في لجة التفكير ، فقد كان سبير مولعا مثله بألغاز الشطرنج التي تنشرها الصحف .

ويزيد من طلاوة هذه الألغاز وأهميتها مما يزعمه فارجوس من أنها توضح نظريته في الحياة وتشرحها .

ونظرية فارجوس هي أن كل امرىء قد أوجد في الحياة لاتمام غاية مقدسة ، وانه أوتي القوة التي تمكنه من بلوغ هذه الغاية .

وكثيرا ما كان يقول لسبير : كلا .. كلا .. لست أعني القضاء والقدر انما يضعنا الخالق في هذه الحياة كما يضع لاعب الشطرنج قطعة على الرقعة . فهو يعرف حل المسألة أو جوابها ، وعليك أنت أن تحله وتستخرجه . ولاعب الشطرنج اذا لم يوفق الى الصواب ، استطاع أن يتعرف خطأه بتتبع حركاته السابقة خطوة خطوة . وهذا هو الشأن في الحياة تماما ، فانك اذا استعرضت سالف أعمالك أمكنك أن تتعرف وجه الخطأ فيها ، وأنك كنت حتى تلك النقطة تسير في الطريق المرسوم ثم جرت عن القصد .

ويعترض عليه سبير قائلا : ولكن من ذا يستطيع معرفة الغاية من حياة أحد الناس ، ودع عنك هل أداها أم قصر دونها ! كيف نستطيع العمل على بلوغ مقصد معين اذا كنت تجهله ؟

وهنا يحتد مستر فارجوس ويقول : وكيف تجهد نفسك في حل لغز من ألغاز الشطرنج مع أنك تجهل ذلك الحل ؟

ـ انك في هذه الحالة واثق من أن ثمة حلا .

وتلتمع عينا مستر فارجوس وهو يهتف قائلا : هو ذاك ، والآن لتعلم أن في الحياة غاية

***

وثمة أيضا من الأصدقاء الذين يلازمون سبير أسرة بيرش ، أو ذلك الشاب بيرش وأمه العجوز الخالدة كما تقول مابل .

ومسز بيرش سيدة صغيرة الجسم ، كان ينبغي أن تقسم حياتها بين سريرها ومقعد الحمام ، ولكنها جعلت همها بدلا من ذلك الى ما يشق عليها من الأعمال ، فهي لا تزال أبدا دائبة على العمل .

وهي على قصر نظرها قلما تجد نظارتها . وعلى عنايتها باغلاق كل ما يمكن اغلاقه ، قلما تجد مفتاحها . وبرغم استخفافها الواضح بجميع معارفها ، فانها شديدة الشغف بسبير . وسبير يجزيها على المودة بمثلها

فقد كان سبير ينظر اليها ببصيرته النفاذة ، فيتبين وراء جفونها الظاهرة قلبا حساسا ، وعاطفة نبيلة ، ونفسا بريئة من الأدران والأقذاء . وانها لتقف عن السير كلما التقت في طريقها بطفل صغير ، ولتأخذه في رفق وحنان ، وقد التمعت عيناها الخابيتان ، وأشرق وجهها الغض كأنما عاودها الشباب والفتاء .

وانها حين تنظر الى ولدها أو تبصره مقبلا ، ليكسو وجهها فيض من السنا والجلال ، وهيهات أن يمحو السطور التي تخطها يد الزمن القاسية على وجوه الشيوخ الفانين غير لألاء قدسي تنبعث أشعته من أعماق الضمير .

أما بيرش الصغير فشاب طويل القامة ، كثير المرح . يرى سبير أن روحه لا تنزل من جسمه غير منزل الطير الغرد من القفص المياد ، دون أن يثقلها المادة ، أو يحتويها غشاء الجسد .

وهو ليس بالقوي الصليب ، وكثيرا ما تقول أمه ان بقلبه ضعفا ، ولكنه يبالغ في المعارضة والاحتجاج ، ويصر على أن قلبه قوي سليم ، فيقول لأمه :

ـ بربك يا أماه لا تحدثني عن هذا اللغو .

ولكنها تجيبه : ليس من فائدة في القول بأن قلبك ليس ضعيفا فانه لضعيف ، وقد كان دائما ضعيفا . والا ينبغي أن أكون أدرى الناس بك ؟

فيقول بيرش : كان ينبغي أن تكوني كذلك يا أماه ولكنك لا تعرفين من أمري شيئا . انما هو وهم تمكن منك وتأبين الا

التشبث به . وقد يتمكن منك وهم آخر فتعتقدين ان لي قلبين بين جنبي . وقد يقسم حينذاك اشهر جراحي انجلترا امام رئيس القضاة على انه ليس بين جنبي غير قلب واحد ولكنك تابين الا وكوب راسك فتقولين « ان هذا الطبيب لاحمق جاهل » ان هذا مريع منـــك يا اماه !

على هذا النحو كان الشاب بيرش يلوم امه ، فتضحك ضحكة قصيرة معتزة بقوتها ، ويضحك ضحكة قصيرة مقرا بضعفه .

وكان بيرش يحمل في احد جيبيه نظارة خاصـــة لامه ، وفي الجيب الآخر حزمة من المفاتيح لدواليبها .

فاذا ما اجهدها البحث عن نظارتها واعياها ، مد اليهـــا النظارة قائلا :

ــ خذى هذه النظارة يا اماه حتى تعثرى على نظارتك

وتتناولها منه مستاءة متململة وهى تقول : ولكنها لا توافقنى .. انها تؤذى بصرى .

وحينما يضنيها الطواف بالمنزل في التماس مفاتيحها التائهة ، يخرج لها ولدها حزمة المفاتيح من جيبه قائلا : استعملى هذه يا اماه حتى تجدى مفاتيحك .

وتتناولها منه مستاءة متململة وهى تقول : ولــكنها تؤذى القفــــل ..

ولكنها كانت تسر الى سيبر ان ولدها يجد كل شيء لهـــا ، وفي وجهها ذلك الاشراق الذى يمس اعماق نـــفس ..

ولقد كانت السيدة الصالحة تعتقد ان ولدها يســتطيع كل عمل ، ولا يعجز دون غاية . وكانت كذلك شديدة الاعجاب به ، لا تنفك عن التحدث بمزاياه ومحامده .

ومع انه كان بين الأم وولدها من التباين في الميول والعادات والافكار بقدر ما بينهما من التباين في العمر ، فقد كانت العاطفة تصل بينهما قوية راسخة .

***

ولو سئل سيبر عن اصدقائه الاخصاء لما ذكر غير اســـرتى فارجوس وبيرش ، فقد كان يخالطهم ويكثر من زيارتهم وقضـــاء الســـهرات معهم .

على ان الاقدار ارادت ان تعود الى حياته .. نونا !

القســـم الثـــانى

نــونـــا

الفصـــل الاول

في صـبيحة يوم جميل من شهر يونيو سنة ١٩١٢ اخذ سيبر يقطع الطرقات الضيقة المرتفعة المفضية الى ليدبورو فوق دراجته الحديدية الضيقة التي ستصل الضاحية الجديدة بالمدينة .

واثار هذا المنظر في نفسه شتى الخواطر والتاملات .

هو يهتم بالضاحية الجديدة ويكثر من التفكير فيها . ومابل تهتم بها كذلك وتكثر من التفكير فيها .. ولكنه لا يكاد يتحدث عنها حتى يحتدم بينهما هذا الخلاف .

وياله مما حدث بينهما هذا الصباح !

ومع ذلك فان هذا هو الشهر الذى يحتفلان فيه بذكـــرى زواجهما منذ ثمانى سنوات !

« * »

وما تعنى الضاحية نفسها صديقنا سيبر في قليل او كثير ؛ بل لعله يبغض ان يرى تلك القرية الوادعة الآمنة مسرحا لاخلاط الزمر الذين يفرعون اليها من المدن ابتغاء الراحة والاســتجمام . ولكن العوامل التى ادت الى انشائها هى التى تعنيه حقا وتحمله على التامل والتفكير ، وهو ينفذ ببصيرته الى ما وراء هذه البيوت الانيقة ، والحدائق الغناء ، والاسواق العامرة ، من اسباب اعظم في حياة الناس اثرا ، واوسع معنى .

ولقد افرد سيبر بابا خاصا لبحث هذه العوامل في كتـــابه « انجلترا » فمن الطبعى ان يطيل التفكير في النتائج حين يراهـــا ماثلة بين سمعه وبصره .

ــ انها ازدحام المدن بسكانها ، ورغبة النـــاس في الابتعاد عن مواطن الكدح والعمل .. واشتداد وطاة الكد في ســبيل العيش اشتدادا يجعل من العمل جهدا شاقا مرهقا ، بعد ان كان فيما مضى من الزمان لذة ومتاعا .

ولكن مابل لا تهتم بامر الضاحية الجديدة لشيء من هذا كله ولا تخطر ببالها صورة من الصور التى ترتسم في نفسه حين يفكر فيها ، فليس له غير الصمت اذا ما تحدثت عنها .

وهى تحمل هذا الصمت على غير محمله .. وتزعم انه يبغض

الضاحية الجديدة وينفر منها ، وهيهات ان تفته قوله وان جد فى اقناعها بغير ذلك .

ومع ذلك فقد انقضى على زواجهما ثماني سنوات لم تكف لتضييق شقة الخلف بين تفكيره وتفكيرها ، حتى ليتناول هذا الخلاف نواحي حياتهما جميعا ، والناس برغم هذا يعدونهما من الازواج السعداء الناعمين !

فما معنى السعادة الزوجية ؟ أهي انعدام الشغب العنيف الصاخب .؟ أهي الا تضرب زوجتك .. والا تسرف زوجتك فى احتساء الخمر او تندفع فى التبذير والاستدانة ؟

وقال سير فى نفسه :

ـ كلا ! . ان السعادة الزوجية لاكثر من هذا !

على انه لم يلبث ان عقد حاجبيه وقطب جبينه وراح يفكر كعادته :

ـ الذنب ذنبي لا محالة .. فما يقتصر الخلاف بيننا على ضاحية الحدائق وحدها ، بل هو يمتد الى نواحي حياتنا جميعا ، ومحال ان تكون مايل فى جانب الخطأ دائما . انا المخطئ بلا ريب ، فقد كنا هذا الصباح على اتم حالات الصفاء والوئام ، ثم قالت : « سيكون ايجار بيوت الضاحية ثمانين جنيها فى العام ، ومن العجيب ان مسز تولر تنوى استئجار احدها »

قالت ذلك ، فتشاغلت عنها بتقليب صحيفتى ، وكان خليقا بها ان تثور وتغضب !

سحقا لى ! لماذا قلبت الصحيفة ؟ ألم اكن استطيع ان اتكلف شيئا من الاهتمام بحديثها فاقول مثلا : يا لها تستأجر بيتا بثمانين جنيها ؟ ان هذه المغرورة المأفونة ستضطر زوجها يوما الى الاستجداء !

كان فى وسعى ان ارضيها بشيء من اللغو والهذر ، وما اكثر ما تحب اللغو والهذر !

انها لا تستطيع ان تسيغ ما يستثير شغفى واهتمامى ، وما يضيرنى هذا ، ولكن ينبغى الا اضيق بما يروقها ويستهويها . فلماذا لا افعل ؟

انا المخطيء .. ما فى هذا من ريب !

❊❊❊

ظل سير مسترسلا فى التفكير لا يكاد يبصر شيئا مما حوله ، حتى نبهه من استغراقه عناف مرح ووقع حوافر جياد ، فترجل

عن دراجته والتفت واذا به يرى راكبا قد لجأ بجواده الفارة الى بطن الطريق الضيق ليتقى الاصطدام به . وما كان هذا الراكب سوى اللورد تايبار صاحب ضيعة نورثوب ، والذى ابتاعت منه « شركة تجديد بنى جرين » الارض التى تنشيء عليها الضاحية الجديدة .

ولقد فوجيء سير بهذا اللقاء مفاجأة اذهلته عن راكب ثان لجأ الى الجانب الآخر من الطريق ، ولم يفطن الي وجوده حتى سمع صوتا نسائيا رقيقا تقول صاحبته لجوادها : ليس هنا من يعيرنا التفاتا ، ولو غادرنا الارض كلها لما حفل بنا احد . ولكن لا تبتئس ايها الجواد العزيز ، فسيرفع ماركو قبعته تحية لنا !

❊ ❊ ❊

وثب اللورد تايبر وزوجته بجواديهما فوقفا بازاء مارك سير ، وهما فى وقفتهما تلك يمثلان أروع صور الرشاقة والجمال

أما اللورد تايبار فلا يزال دون الثلاثين ، وفى قسمات وجهه ما يمسك بعض الميل ، وفى عينيه الرماديتين ما يشف عن اسراف فى اللهو والعبث ، وفى تالقهما ما يدل على جسارة وجراة نادرتين ، ووجهه نحيف مشرب بالاصفرار وكل ما فيه ينبيء عن التحدى والاستهتار .

ويزعم بعض النساء أن له فما قاسيا ، ولكنهن لا يلقين هذا القول فى استنكار او اسف ، كان الفم القاسى ليس أقل ما فيه من اسباب الجاذبية والسحر .

أما الليدى تايبار ففى الثامنة والعشرين ، وكأنما ارادت الطبيعة ان تفيض عليها ما سلبته من بشرة زوجها الصفراء وشعره الاسود المجعد ، فحبتها ببشرة وضاءة ناعمة ، وشعر ذهبى متألق .

ولم يكن كثير من الناس يعدونها من ذوات الحسن البارع والجمال الباهر ، فانها مستديرة الوجه ، والجمال فى عرفهم من خواص الوجه البيضاوى وهو يشف عن الطلاقة والذكاء ، وليس من الجمال أن يكون فى المرأة طلاقة وذكاء .

بيد ان سير يراه جميلا فاتنا .

ولم يرها وزوجها منذ عامين الا قاما برحلة طويلة ، وها هو يلقاها على غير انتظار فترجع به الذاكرة الى ما دار حولها من الاحاديث فى الاندية ومجلس السمر يوم تمت خطبة نونا هوليداى للورد تايبار .

قال حينذاك بعضهم : انها جميلة !

فقال سير فى نفسه : انكم لاغبياء !

وقال غيرهم : ليست من الجمال فى كثير !
فقال سيبر كذلك : انكم لاغبياء !
واعرض ساخطا عن اولئك وهؤلاء . جميلة ! ليست من الجمال فى كثير ! وخرج سيبر من النادى محنقا دون ان يعبأ بالمطر الذى كان ينهمر فى الخارج .

جميلة ؟ او يمكن ان يكون جمالها موضعا للشك والبحث ؟ ايمكن ان تقصر ابصارهم دون ما يوحى اليه محياها من العواطف والمشاعر ؟

❊ ❊ ❊

ولكنه ما عتم أن عاد الى نفسه قائلا : ان للقوم عذرهم ، فما ينظرون اليها بعين العاشق الصب ، وما يحدث بهم هذا النبأ الذى تراءى اليهم الآن مثل ما احدثه بى من الوجد والالم عندما حملته الى بنفسها فى الصباح ! ولعمرى ما كانت تونا لتجهل شدة وقعه على فؤادى وان احتبس اللسان فلم يقو على النطق !
اجل .. انى لأرى فيها ما لا يراه الناس .
وانه ليرى فيها الآن ما لا يراه الناس وهى فوق جوادها الاصيل ، وانه ليعجب أشد العجب من الحاح ذكرى تلك الليلة الماطرة على خاطره بعد أن انقضت عليها عشر سنوات وبعد ان احتجبت عنه تونا عامين كاملين !
تبادلوا التحية ، واخذ سيبر يعتذر متلطفا عن اقتحام الطريق عليهما ، فقال اللورد تايبار ضاحكا : ان ضاحيتك هذه يا سيبر لمكان غادر يفتن المرء عن نفسه .
اجاب سيبر : ليست ضاحيتى ولله الحمد !
ــ ما اراك تشاطرنى الاعتزاز بالقرية التى نشأنا فى اكنافها ؟ وان هذا الاعتزاز لأحدى سجاياى البديعة كما قال لى فيكم (بوم باجشو) عندما رآنى اجهش بالبكاء وهو يطوف بى فى أرجاء الضاحية الجديدة من فرط تأثرى . وهأنا قد غدوت للضاحية الجديدة حاميا او نائب قسيس أو شيئا من هذا القبيل . ما هى صفتى يا تونا ؟

فاجابت تونا فى صوت عذب واضح النبرات : انك ارستوقراطى متعجرف مصاص للدماء كما نعتتك صحيفة القاطعة بالامس ! ولكنى امنعك من استعمال كلمة « بديعة » لانها الكلمة التى استأثر بها دونك ..
قال اللورد تايبار : تالله انى لكذلك ! مصاص للدماء ! يالله .. ما افظع ان يكون المرء مصاصا للدماء !

وضحك سيبر قائلا : ولماذا تستأثرين بكلمة « بديعة » يا ليدى تايبار !
فاظهرت تونا التبرم والاستياء وهى تقول : حبذا لو دعوتنى باسمى « تونا » مجردا من كل لقب كما كنا نفعل منذ الصغر يا ماركو ام لانى تزوجت ..
واعترضها اللورد تايبار قائلا : تزوجت بمصاص للدماء بغيض !
فاستطردت تونا قائلة : اجل .. بمصاص الدماء . حذار أن تدعونى الا « تونا » فقط ، وقد نبهتك الى ذلك قبل قيامنا فى رحلتنا . ام تخشى ان يغضب تونى ؟
قال اللورد تايبار : وما الذى يعنيك يا سيبر من غضب مصاص للدماء ؟ لا تغال فى قدرى يا صاح فما انا الا بقية من عهود الاقطاع . اليس كذلك يا تونا ؟

ــ تماما . فلا تكن يا سيبر اشد حمقا مما كنت دائما ..
فتمتم اللورد تايبار : لقد اذكرتنى الصفة الثانية التى خلعتها على صحيفة القاطعة : فقد نعتتنى بانى احمق !
بدا لسيبر ان اللورد تايبار يجد فى حواره مع زوجته كثيرا من اسباب التسلية والاهتمام ، فقد انثنى فى سرجه حتى واجه تونا ، وراح يقلب بصره بينها وبين سيبر وهو يلقى بالنكات والاعتراضات ، وفى عينيه بريق يشبه السخرية ..

ولكن .. ياله من اسراف فى الوهم ! اية سخرية يمكن ان يضمرها فى هذه الحالة ؟
واستطردت تونا قائلة : كنت تسألنى يا ماركو عن معنى استئثارى بكلمة « بديعة » . لقد اتفقت مع تونى على أن يختص كل منا بالكلمة التى تروقه فلا يدعيها صاحبه قط .
وهنا اعلن اللورد تايبار انه قد عنت له كلمة جديدة يريد الاستئثار بها وهى كلمة « دماء » ، وقال : وما دمت أعيش على امتصاص الدماء ..
فهتفت تونا : انت مريع يا تونى !
قال : اعرف ذلك ، انى مجمع كل ما هو شنيع هائل ! نعم .. « الدماء » كلمتى الخاصة يا تونا .. مسجلة .. جميع الحقوق محفوظة .. الدماء !
قالت : لا بأس .. ما دمت تتشبث بالاسم دون الصفة !
وضحكوا جميعا . ثم جمع اللورد تايبار اعنة جواده قائلا : ثمة صفة اخرى من سجاياى الحسنة .. حب الحيوان ! وان ما بينى وبين جيادى من التفاهم والتعاطف ليثبتنى ان هذا الجواد قد

مشتك وملك يا سبير ! ولا ريب انك بعد ان علمت بعودتنا من السفر ستكثر من زيارتنا ؟ ان تونا تحب ان تراك كثيرا .. اليس كذلك يا تونا ؟

وعاد يقلب بصره بين سبير وتونا فى تلك السخرية العجيبة اللاذعة !

وقالت تونا : بلى .. انى لاحب لقاءك يا سبير ولا سيما حين لا تسرف فى الجد ! تعال لزيارتنا تلق دائما كلمة خشنة وكلمة قوية !

ومال جواد اللورد تايبار براسه نحو سبير فمس وجهه يريد مداعبته ولكن الجواد رفع راسه واستدار بغتة فقال اللورد

ـ انه ليظن انك تبيت لنا كيدا يا سبير !

ان التماع عينيه ليشف عن سخرية لاذعة ، وان فى عباراته لمعنى بعيدا لا ترتفع اليه ظنون سبير ، ولكنه ينطوى على اكثر من الدعابة والمجون !

وكانت انظار تايبار متجهة الى القياض المترامية من تحت الطريق المرتفع وما لبث ان هتف قائلا :

ـ ها هو الوغد سوير الذى كان يجد فى الهرب والاستخفاء ! لقد وجدته وساصنع الجعل بدمائه .. الدماء .. كلمتى الخاصة يا تونا ! ما احسبك تمانعين فى العودة وحدك .

ثم ادار راس جواده فى مهارة عجيبة وهو يقول :

ـ الى الملتقى يا سبير .. معذرة يا تونا !

وانحدر به الجواد مسرعا الى الحقول وهما ينظران فى اثره ، وما لبث ان غاب عن اعينهما .



وغمغمت تونا وهى تنظر عبر الوادى : كيف استطاع ان يرى سوير هذا ؟ انى لا ابصر احدا .. ولكنه احد بصرا من اربعة صقور !

وقال سبير : وانه الماهر فى ركوب الخيل !

ـ انه ليبز الناس جميعا فى كل عمل ، هذه ميزة تولى .. هو عجيب فى كل شىء .

على انها نطقت بهذه الكلمات فى شىء من الفتور ثم اردفت :

ـ انى ذاهبة ايضا ولعلك يا ماركو سائر الى عملك فلا تحب هذا التلكؤ والهذر . ما اخالك غدوت من اهل التراخى والكسل ، لقد عرفتك مسرفا فى الجد والنشاط .

وضحكت كأنما حضرها شىء يتعلق بجده واكبابه على العمل ،

وضحك سبير كذلك . ولقد كانا فى الحق يشتركان فى كثير من احداث الماضى وذكرياته ، وان لم تكن كلها مما يبعث على الضحك والجدل ..

ثم قال سبير مبتسما : اخشى الا اكون كعهدك بى من الجد والنشاط .

ـ ولكنى احبك حين تكون مجدا دائبا .

وساد الصمت بينهما برهة قصيرة خالها سبير دهرا . وكأنها احست مثله وطأة الصمت ووجدت لزاما عليها ان تمزق حجبه فعادت الى الكلام فى صوت سريع ادنى الى الارتفاع : وكيف حال مابل ؟

ـ بخير .. وانها لشديدة الاهتمام بالضاحية الجديدة .

ـ خليق بها ان تكون كذلك .

وكان شيئا فى صوتها حدا بسبير الى ان يقول متحديا : وانا مثلها !

فضحكت تونا قائلة : اعلم ذلك يا ماركو . والآن .. الى الملتقى .

وواصل سبير السير فى طريقه وقد ازدحمت فى راسه الخواطر والذكريات وهذه الكلمات لا تفتأ تطن فى اذنيه : « سيكون ايجار بيوت الضاحية ثمانين جنيها فى العام ، ومن العجيب ان سير تولى قنوى استئجار احدها ! »

الفصل الثانى

فرغ سبير من العمل القليل الذى وجده بمكتبه ، وظل ينظر ساهما الى سقوف الكتب التى تولى نشرها ، ثم اخرج مسودات كتابه « انجلترا » وراح يقلبها مفكرا .

شد ما يرغب فى الوقوف على راى تونا فى كتابه !

ثم دخل توانشنج ، ولم يكن يفعل ذلك الا نادرا اذ لم تكن ثمة ادنى صلة بين عمليهما ، كما كانت العواطف المتبادلة بينهما ابعد شىء عن المودة ، او ما يشبه المودة .

وكان توانشنج يكبر سبير بسنتين ، ولكنه يكبره باكثر من ذلك فى الهيئة والطباع والخبرة بالاعمال . فقد التحق بالشركة منذ نعومة اظفاره كتلميذ حسابات ، ثم رقى رئيسا للحسابات على اثر اكتشافه لتلاعب خطير فى اعمال الشركة ، وعين « تحت الاختبار » بالوظيفة التى يشغلها الآن يوم التحق سبير بالشركة ، وثبت فيها يوم اعتزل والد سبير الاعمال .

ولم يكن سيبر في رأيه أهلا للعمل الذي تقلده ، وقد أغضبه أن يرتاب سيبر الى مثل مركزه دون أن يبدأ من أدنى السلم في وظائف الشركة . على أنه كظم غيظه ، ولم يظهر له شيئاً من العداوة والبغضاء .

حاول التودد الى سيبر ، غير أن مودته كانت من نوع لا يرضاه سيبر ولا يلائم طبعه . فهو يريد أن يقفا من القس فورشون موقف الصبية العابثين من المعلم الغبي العنيد ، متحالفا على السخرية منه والكيد له .

ولكن سيبر يأبى أن يضع نفسه هذا الموضع ، ولم يترك في ذهن صاحبه مجالا للشك في أنه يرى نفسه لفرشون كفوا ونظيرا . فلن يقف منه موقف الصبية الاغرار .

كان توابنج متوسط الطول ، شديد الهزال ، أسود الشعر .. تتقاطع في وجهه الحليق خطوط عميقة لا يتمالك معها الناظر نفسه من التفكير فيما تكلف حلاقة ذلك الوجه المخدد من جهد ومشقة .. وهو منتصب العود .. جاف الصوت .. لا يكف اذا تحدث عن النفخ في أنفه كأنه يقوم بتمارين في التنفس العميق ..

ولقد دهش سيبر أشد الدهشة يوم علم أن له ولدا يناهز الثامنة عشرة .. وأن هذا الولد يعمل في مكتب أحد المحامين

دنا منه توابنج ممسكا بورقة .. فرفع سيبر بصره اليه وهو مستغرق في التفكير ثم ألقى القلم قائلا : هالو توابنج .. أيوجد ما تريد محادثتي فيه ؟

ـ ليس ثمة أمر معين .. انما جئت لرؤياك .

وراح ينظر من فوق منكب سيبر في الصفحة الاولى من مسودات الكتاب ثم قال : أهذا كتاب جديد ؟

أخذ سيبر يستجمع شتات خواطره .. وما أشق هذا .. وتوابنج واقف خلفه ينفخ في أنفه !

وقرأ توابنج العبارة الاولى من الكتاب ثم قال : ان هذا الكتاب لا يعنيني على كل حال

قال سيبر : نعم .. ولكن لماذا لا يعنيك ؟

ـ انه يقول « انجلترا هذه ملكك .. » ولكنني أقسم انى لا أملك فيها قيد أنملة .. ألم يبلغك ما حدث .؟ ان بيتي مشيد على أرض انتصبها من المنافع العامة أجداد اللورد تايبار .. وقد انتهت مدة الايجار وسأخرج من البيت صفر اليدين .. فهل في هذا ما يطابق الحق والعدل

أجاب سيبر في شيء من الضجر : كلا .. بل هو عين الجور

والعسف ، وسأقول هذا أو ما يشبهه في كتابي .

ففكر توابنج برهة ثم قال : ولكن مثل هذا الرأى لا يصلح غذاء لعقول الاطفال .

ـ لن يكون كتابا للاطفال .

وارسل توابنج من أنفه فحيحا يشبه الضحك وقال : لا تغضب يا صاح ، ولكنك ترى أن صلات الشركة بالاوساط الدينية والمدرسية لا تسمح بنشر مثل هذه الآراء .

ـ هل ترى يا توابنج أن ترجىء نقدك حتى أتم الكتاب !

ـ حسنا .. حسنا .. انى لا انقده . وماذا يكون اسمه ؟

ـ انجلترا .

ـ انجلترا ؟ .. واسكوتلنده ؟ ان الاسكوتلنديين سريعو التأثر قانا ...

وخبط سيبر بقبضته على المكتب غاضبا وصاح : ما شأن الاسكوتلنديين بهذا ؟ ان الكتاب عن انجلترا .. انجلترا . ثم انك تتكلم عنه بقولك « نحن » ، فمعذرة اذا قلت لك ان الامر يتعلق بي وبي وحدي .

على أنه لم يلبث أن ابتسم بعد العبوس قائلا :

ـ انى آسف يا توابنج ..

❊ ❊ ❊

تجهم وجه توابنج وانثنى يريد الباب ، ولكنه عاد وقد انبسطت أساريره قليلا وقال : حسنا . لقد قلت ان الامر لا يتعلق « بنا » ولكنه سيغدو كذلك . ما رأيك اذا انتقلت فوق الخط ؟

وبسط الورقة التي بيده ، وهي من أوراق خطابات الشركة العادية . وفي زاويتها اليسرى :

القس سباستيان فورشون

مستر شيرمان توابنج
مستر مارك سيبر

فسأله سيبر في تمهل . ماذا تعنى بقولك « فوق الخط » ؟

واشار توابنج الى الخط الصغير الذي يفصل بين اسم فورشون واسميهما وقال : هذا الخط . لقد أخبرني « يونان » الآن انه سيدخلني في الشركة .

لم يجب سيبر الا بكلمة واحدة : حسنا .

وعاد توابنج الى سابق تجهمه أو أشد واستدار نحو الباب ، ولكن سيبر لحق به قائلا : لا تغضب يا توابنج .. انى أهنئك من

صميم فؤادي ، ولكن النبأ اصابني بصدمة الاعتذر . انك اتعلم ما تجشمت من المشاق المرهقة في سبيل هذه ..

واشار الى الكتب التي نشرتها الشركة .. بل التي نشرها هو ..

فشد توابنتج على يده قائلا : اشكرك يا صديقي . واني لأقدر حالتك تمام التقدير ، ولكن لك بالشركة اثنتي عشرة سنة ، اما انا فقد سلخت في خدمتها خمسة وعشرين عاما ، فالمسألة مسألة وقت لا اكثر ولا اقل ..

ـ ولكن فورشون وعدني منذ زمن بعيد بادخالي في الشركة .

ـ اني على تمام الاستعداد لمحالفتك يا صاحبي .

لم يجب سبير . وانصرف توابنتج . وما كاد يغلق الباب خلفه حتى ضم قبضته متوعدا وهو يقول في نفسه : صدمة ! ستلقى اشد واتكى يوما ما ايها الكلب القذر !

❋ ❋ ❋

دق سبير الباب الفاصل بين غرفته وغرفة القس فورشون دقة واحدة خفيفة ثم دخل دون ان ينتظر الجواب .

وكان فورشون عاكفا على الكتابة في دفتر اسود صغير ، فطوى الدفتر ودار به حول جسمه الضخم في مهارة اكسبه اياها طول المران ، ووضعه في جيب خلفي بسترته .

وقال سبير : هل تمنحني من وقتك دقيقة واحدة يا مستر فورشون ؟

اجاب : بلا ريب .. وقد كنت اريد الآن محادثتك .

فجلس سبير على ذراع مقعد ضخم وهو يقول : لعلك اردت التحدث الي في موضوع الشركة ؟

واستاء فورشون اشد الاستياء من جلسته وقال : اية شركة ؟ لا يختص الامر بشيء من هذا على الاطلاق .

ـ اتذكر انك وعدتني مرتين باشراكي في ادارة الشركة ..

فقاطعه فورشون وهو يضم يديه على بطنه الضخم الذي يشبه بطن الحوت : لا اذكر شيئا كهذا يا سبير .. انما تحدثت اليك عن امكان التفكير في ذلك الوقت المناسب .. الوقت الذي اراه انا مناسبا . اعدا ما تعنيه بقولك « موضوع الشركة » ؟

ـ اجل يا سيدي . وقد مضى اكثر من الوقت المناسب منذ وعدتني بذلك .

فأخرج القس فورشون ساعته الذهبية ونظر فيها كأنه يتوقع ان تبين له الوقت المناسب ، ثم ردها الى مكانها قائلا : يبدو لي

يا عزيزي سبير ان موقفك غريب ! كأنك تريد ان تشاركني الشركة وليا . او تدفعني الى اشراكك دفعا ولكني اؤكد لك ان الشركة لا تنال وليا ، وانك لا تستطيع دفعي الى ما تريد .

وما كان سبير من الفطنة والنباهة بحيث يظن ان في وسعه دفع سواه دفع القس فورشون فما يتهيأ هذا لغير آلة مجارية قوة ٣٠ حصانا !

وقال : انما اردت ان سألك هل غيرت رأيك ؟ ولماذا ؟ اردت ان اعرف هل فعلت ما يغضبك منذ وعدتني .. منذ ذكرت لي ذلك الامر اول مرة ؟ .

وكان بطن الحوت يهتز اهتزازا عنيفا كأنه يتهيأ لمقاومة « الدفعة » فلما قال سبير هذه الكلمات سكن بعد اضطراب وقال صاحبه : لم تفعل ما يستوجب غضبي يا سبير ؟ بل بالعكس . ولا ريب ان فيك صفات لا تروقني ، ولكنها لا تتصل بعملك لحسن الحظ . فلك ان تطمئن كل الاطمئنان . ولكن ما الباعث على هذا السؤال ؟

ـ بلغني انك اعتزمت ادخال توابنتج في الشركة .

فوثب بطن الحوت وثبة عنيفة ، وظل يضطرب كأنما صدمته كرة معدنية . وقال فورشون في صوت جاف غليظ : امر هذا في ملاحظاتي الاولى هي ان توابنتج قد جاء امرا .. اذا نقل النبأ اليك ..

فقاطعه سبير قائلا : لم ينقل الي شيئا ، وانما استنتجته استنتاجا من حديث جرى بيننا في موضوع آخر ، واني لارى انني كنت مصيبا في استنتاجي .

خالج فورشون الندم لانه لم يعمد الى الانكار ما دام الامر كذلك وقال :

ـ يسرني ذلك ، وكان خليقا بي ان اعلم ان توابنتج لا يمكن ان يقترف هذا الخطأ الشنيع .

والآن اعود الى ملاحظتي الثانية فاقول انني لا اسمح لاحد بمناقشتي الحساب فيما هو من شأني . ان هذه المؤسسة ملكي ، فاذا بدا لي ان اوسع من نفوذ توابنتج في دائرة عمله فليس لك ان تعارض ، واذا اردت ان اوسع من نفوذك فليس له ان يعارض .

وفكر سبير في كلامه بعقله الطليق من قيود العاطفة والهوى كدأبه فرأى حجته معقولة تتمشى مع المنطق واجاب : اجل . هذه وجهة نظرك الخاصة يا سيدي وازعم انها تجاوز الصواب ، ولكن ..

فقاطعه القس فورشون قائلا : شكرا لك .

واسترسل سيير قائلا : ان الناس ينظرون دائما الى ظواهر الامور دون جوهرها وحقيقتها ، ولو كان هذا الامر يقتصر على شخصى لما اعرته التفاتا .

لست احفل بانكار جهودى اذا كان هذا الانكار لا يعدونى ، ولكنى اراه يتناول تلك الجهود المتصلة المضنية .. هذه الكتب التى لا اراها ورقا ومدادا ، بل كائنات تنبض بالحياة ، وتحس وتتعذب بما تلقى من الجحود والهوان ! اخشى الا تفهم تماما ..

فقال القس فورشون : كلا .. اعترف ان معانيك لا يعلق بها فهمى !

وظل الرجلان يرمقان بعضهما فى جمود

ثم قال سيير : حسنا !

وانثنى نحو الباب فسأله فورشون : سيير .. انك على وفاق مع مسيو توابنتج فيما اعتقد ؟

— على وفاق ! اجل . فان الصلة بين عملينا تكاد تكون فى حكم العدم

— اتبغض توابنتج ؟ .

— ما استطيع ان ابغض رجلا لا اكاد اشعر بوجوده

— يحزننى سماع هذا .

وسأله سيير بدوره : متى تدخل توابنتج فى الشركة ؟

— ليس اليوم .

— هل لى ان اعتقد انك لا تزال معتزما ادخاله فيها ؟

— لك ذلك بلا ريب .

— ومتى يتحقق هذا ؟

— ليس اليوم .

يا له من هذه الجملة التى تكاد تذهب بالعقل !

❊ ❊ ❊

عاد سيير الى غرفته فارتمى على مقعده ، وفى عينيه تلك النظرة التى لاحت فيهما وهو يتحدث الى فورشون عن الكتب .

وفكر سيير : الكتب .. ان فورشون لم يتمثلها فكرة سابحة فى عالم القوة ، ولم يتعهدها بألوان العناية والرعاية حتى نمت وترعرعت . ولكن جهله بقدرها يحز فى نفسى ، وليس فى وسعى حمله على فهم ما يعتلج فى خاطرى من نحوها . بل ليس فى وسعى وصف ذلك لاحد من الناس .

وشد ما ارغب فى اظهار تونا على نجواى

ان لى مع فورشون اثنتى عشرة سنة كاملة ، غير انى عندما حدثته عن الكتب ظللنا ننظر الى بعضنا واجمين ، كان على وجه كل منا قناعا يحجبه عن انظار صاحبه فلا يستبين منه شيئا .

وثمة الاف الناس غيرنا فى المكاتب والبيوت تنسدل على وجوههم الاقنعة الكثيفة ، فلا يكادون يعرفون بعضهم بعضا على ما يجمع بينهم من الروابط والاسباب .

فياله من لغز غامض عجيب !

نحن جميعا نخوض غمار حياة واحدة ، وقد جئنا من مصدر واحد ، وسنصير الى مستقر واحد ، ففيم هذا الاستتار والتخفى ؟

انك لترى طائفة من النمل فى حركة دائبة متصلة ، وليس ثمة ما يدل على ان اثنتين منها تعرفان بعضهما ، او تسعيان الى غاية مشتركة ، فتعجب ما شاء لك العجب من هذا التجاهل والتناكر على احتشادها فى صعيد واحد . ولكن ما اشبهنا بها ، وما احرانا بان نعجب من امرنا لو استطعت !

انا لنعرف من امر انفسنا ما لا تعرف النمل من امر انفسها ، ولذلك قد تمتزج حياة اثنين من الناس مزجا ، وتجمع بينهما تحت سقف واحد ، فلا تلبث ان ترى كلا منهما تتوارى خلف قناعه !

انا ومابل مثلا .. كلانا يبالغ فى التخفى والاستتار خلف قناعه ، فاذا ما خلونا الى بعضنا لم نزد على النظر والتحديق ، دون ان يستكشف احدنا من حقيقة صاحبه شيئا !

واسترسل سيير فى التفكير : ان المرء ليخيل اليه وهو ينظر الى طوائف النمل فى اضطرابها وحركتها تلتمس شيئا مفقودا ، فهل يمكن ان يكون هذا شأننا ، اهذا هو علة ما نكابد من صنوف الشقاء وضروب الالم ؟

كلنا ننشد ضالة ما . فبعضنا يطلب شيئا ، ويعلم انه يطلب شيئا . وبعضنا يعرف انه ينقصه شىء ولكنه يروض نفسه على القناعة بالواقع ، او الرضا بالشقاء .

فما الذى ننشده ؟

اهو الحب ؟ .. ان كثيرا من الناس يتفيأون ظلال الحب .

اهى السعادة ؟ .. ولكن اليس كثير من الناس سعداء هانئين ؟

كلا .. انه شىء غير الحب ، وغير السعادة .

هو فى رأيى شىء ينبغى أن يفيضه علينا الدين ، ولكنه لا يفعل .
أهو النور ؟ نور يفرغ على النفوس ثباتا فى الدين واطمئنانا الى الايمان ؟

وعاد به خاطره الى السعادة فراح يفكر : وما أعجب شأن السعادة ! ليس فى مقدورك تحصيلها لنفسك ، ولكنك تستطيع أن تهيىء أسبابها لغيرك . .

وهنا طنت فى سمعه هذه الكلمات : « سيكون ايجار بيوت الضاحية ثمانين جنيها فى العام ؛ ومن العجيب أن مسز تولد تنوى استئجار احدها ! »

قالت مابل هذا فلم يجبها ، بل قلب صحيفته غير مكترث ! انها لغلطة تؤلم مابل ؛ وما أشد ما يؤنبه الآن ضميره على ايلامها . .

واذا كانت تجد شيئا من المتاع فى مثل هذا الأمر التافه ، فما ضره لو جاراها وسألها ؟ أتراه يضيق بالطفل لأنه يصيب لذة فى العبث « بشخشيخة » ؟

لقد تخلت مابل عن بيتها وأهلها لتعيش فى كنفه وتستظل برعايته وحدبه ، ومن حقها أن يفسح صدره لكل ما يروقها ويستهويها .

انه كان غليظا قاسيا .

وتمكن منه هذا الخاطر ، فنظر فى ساعته والفاها دون الثانية عشرة . وفى وسعه أن يبلغ بيته قبل موعد الغداء .

لا ريب أنها تستوحش أشد الوحشة اذ تتناول الغداء وحدها كل يوم . ولا سيما بعد ما كان بينهما هذا الصباح ، فخليق به أن يقضى معها بقية اليوم فى سرور ومرح ؛ وأن يعمل على تلافى ما أحدثه بنفسها من الألم .

وهكذا غادر مكتبه ، واعتلى دراجته ، وانطلق الى مابل لا يلوى على شىء .

الفصل الثالث

وجد سبير عند وصوله ساعى البريد واقفا بالباب ، ولم يكد ينظر فى غلاف الرسالة التى أعطاه اياها حتى تبين خط نونا ، وكانت الرسالة كما يلى :

« نورتريب ـ الثلاثاء »

« عزيزى ماركو ـ عدنا بعد أن ذرعنا العالم الفسيح من الصين الى بيرو ؛ فمتى تأتى لتصديع رأسك بأنباء الرحلة ؟ كيف حالك ؟

« نونا »

وقال سبير فى نفسه : ان نونا أرسلت هذه الرسالة بالأمس ؟ فلماذا لم تخبرنى بها عندما التقينا اليوم ؟ لعلها ظنت أنى تلقيتها قبل لقائها ، فعجبت من صمتى كما أعجب الآن من صمتها ، وينبغى أن أشرح لها ذلك .

ووضع الرسالة فى جيبه ودخل البيت موقنا أن مابل ستدهش لتبكيره فى العودة .

* * *

كانت مابل تهبط السلم عندما دخل سبير الردهة ، ولم يبد عليها شىء من السرور بمقدمه ، فلم يجد سبير فى ذلك شيئا من الغرابة بعد اختلافهما فى الصباح .

وحيته قائلة : هالو . . هل نسيت شيئا ؟

فابتسم ابتسامة مشرقة وأجاب : بل رأيت أن يكون اليوم راحة .

وبدت عليها علائم الحيرة وهى تقول : راحة ؟ لكم جميعا ؟

ـ طبعا لا . . لنا نحن الاثنين فقط !

ومس يدها فى رفق وحنان وهو يرجو أن تجزيه عن التلطف بمثله ، ولكنها لم تفعل . وقال فى نفسه : ولماذا تفعل بعد الذى كان منى ؟ انما عدت لاصلاح ما أفسدت بجفوتى وغلظتى .

ثم قالت : هذا عجيب ! وكيف اعتذرت . . وماذا عسى أن يظن مستر فورشون ؟

ـ لم أعتذر . . وما أحفل بمستر فورشون ولا بظنونه .

ـ سيراه تصرفا شاذا بلا ريب .

أخذ سبير يلعن فى نفسه لجاجتها وكاد يصارحها بذلك ، لولا أن ذكر الغاية التى عاد من أجلها فقال : بدا لى فجأة أن نقضى اليوم فى اللهو والرياضة

فسارت نحو حجرة الانتظار وهى تقول : ولكن فى هذا شيئا من الشذوذ .

ثم سألته فى غير اكتراث : وكيف تنوى قضاء اليوم ؟

ـ لم أفكر فى ذلك بعد ، وأرى أن تأتى بدراجتك فنخرج فى نزهة قصيرة قبل تناول الطعام .

قالت وهى تأخذ مقصا كبيرا من أحد الأدراج : لا أستطيع ذلك لكثرة ما أمامى من الأعمال ، فضلا عن أنى فى انتظار زائر .

وشعر سبير أنه كان مغفلا أبله حين ظن أنه يستطيع التقرب اليها ومصافاتها ، والا فلماذا تتحاشى ذكر اسم ذلك الزائر ؟ أتراه قد غدا غريبا فى بيته ؟ . ولكنه لم يلبث أن تمحل لها عذرا فقال فى

نفسه : ولماذا تفعل ؟ لقد كانت توشك بلا ريب ان تفضي الي بالامر كله هذا الصباح لولا ترقي ورعونتي ! ثم قال لها : هذا حسن .. ومن تكون الزائرة ؟

فاخذت سلة صغيرة لجمع الزهور وهي تقول : مستر باجشوا

وهتف سبير قبل ان يتمكن من حبس لسانه : يا الهي !

وهنا « اشتعلت » مابل وتدرت بالرتهسا ؛ وحاول سبير استدراك خطئه فقال : اني آسف .. آسف جدا يا مابل ، وكلمة « يا الهي » ليس فيها ما يغضب ، انما هي طريقتي .

ــ أعرف ذلك .

بيد انه لم يقنط من استرضائها فاسترسل في اعتذاره قائلا :

ــ ان الحديث شجون كما تعلمين ، ومستر باجشو قسيس ، فكان طبيعيا ان تبادر على لساني كلمة « يا الهي » التي تتصل بالدين !

ــ لا استطيع في الحق ان ارى ما ينفرك من مستر بوم باجشو

ــ ابدا .. ما انفر منه قط ! انما يزعجني منه اسرافه في الكلام

ــ ولهذا السبب ادعوه عندما لا تكون هنا

فضحك سبير وقد عول على المضي في جهاده .. واخذ السلة من يدها قائلا : هيا بنا نقتطف الزهور ، وساكثر من الكلام مع باجشو ما استطعت

❊ ❊ ❊

رفعت مابل اول وردة اقتطفتها الي شفتيها ثم قالت :

ــ جميلة .. وممن تلقيت تلك الرسالة يا مارك ؟

وعجب سبير كيف علمت بتلك الرسالة التي كاد ينساها واجاب : كيف علمت بها ؟ انها من الليدي نايبار ، وقد عادت وزوجها من السفر

ــ رايتك من النافذة مع ساعي البريد . ماذا يحملها على الكتابة اليك ؟

ضاق سبير بلهجتها الجافة واحس ان عاصفة توشك ان تعصف بما بني من الآمال في يومه ، فهو يعلم بما تضمره لنونا من الكراهية والبغضاء .

ــ انها تنبئني بعودتهما وتطلب الينا زيارتهما .

ــ دعوة ! ولماذا لم تكتب الي ؟ هل لي ان ارى الرسالة ؟

فاعطاها الرسالة قائلا : انها ليست دعوة بالمعنى المفهوم من

الدعوات الرسمية . واخذ يراقبها مشفقا وهي تقرأ الرسالة ، ثم ردتها اليه قائلة :

ــ كلا .. ليست رسمية .

وعادت الى قطف الزهور وهو يكد ذهنه في التماس موضوع يصلح لوصل ما انقطع من الحديث ، حتى امتلأت السلة فعادا الى المنزل .

❊ ❊ ❊

وضعت السلة على المائدة واخذت تنسق الازهار ثم سألته :

ــ ولماذا تدعوك ماركو ؟

فوجيء سبير بهذا السؤال ، ولولا صدوره عن مابل لما استطاع أن يرى صلة له بالرسالة . وقال : من ؟ نونا ؟

ــ نعم .. نونا اذا شئت .. او الليدي نايبار

ــ لقد كانت تدعوني هكذا دائما كما تعلمين .

ــ لم اكن اعلم ذلك في الحق .

ــ بل تعلمين يا مابل ، وطالما سمعتها تدعوني بهذا الاسم .

ــ ربما .. ولكني كنت اجهل انها تدعوك به في رسائلها .

ــ واين الفرق بينك ؟

ــ ثمة فرق عظيم فيما ارى . وما كنت ادري انها ترسل اليك كتبا .

وصاح سبير حانقا : وما ترسل الي كتبا قط !

فهزت مابل كتفيها وهي تقول : ولكن كتبها تصل اليك برغم ذلك ! انت احبها ، وما احبيتها ابدا !

راى سبير ان شقة الخلف لا تزداد الا اتساعا ، وانه لن يستطيع ارضاء مابل او حملها على التفكير الهادىء السليم مهما جهد ؛ فآثر ان يأوي الى غرفته حتى لا تضطره بغلظتها الى مصارحتها بما يجيش في صدره .

لقد عاد اليها لحدوه انبل المقاصد والاغراض ، فاذا بها تلقاه لقاء يسفر الحطيم ، ويستثير الحلم الصبور .

عاد اليها لانه لقي نونا بعد طول التاني ، فبعث مرآها في نفسه مثنى الذكريات ، واذكى ما كان خابيا في فؤاده من اللواعج والشجون ، وهام به القلب الثائر في كل واد لا اثر به لمابل .

وما كان سبير بالرجل الذي تقتنه العاطفة الجامحة ، والفؤاد المتمرد ، عن اقدس واجباته . فعاد الى زوجته راجيا ان يجد عندها من الحنان ما يفل من حدة هواه القديم ، ويكبح من جماح عاطفته الثائرة الهائجة .

ولكنها ابت الا ان تركب راسها ، وتمضى فيما اخذت به نفسها من التنافر والمناقضة!
ولقد احسن اذ لاذ بغرفته قبل ان يعظم الشر ويستفحل

* * *

دوت فى ارجاء البيت دقات ناقوس كبير اهداه الى مابل ابوها نائب الاسقف ، وانه ليذكر سبير كلما انبعث صوته المدوى ، بصوت ابيها المدوى!

وكان هذا ايذانا بحلول موعد الغداء فنزل سبير بعد ان غسل يديه .. والفى مابل بقاعة الانتظار عاكفة على التطريز فسالها : الم يحضر باجشو ؟

اجابت وهى تنظر الى الساعة : ارى الا ننتظره . آه .. لقد اقبل ..

ولم يكن فى انجلترا بأسرها غير رجل واحد يستطيع التحلل من النظام الصارم الدقيق الذى يسرى على كل شىء فى بيت مابل .. هذا الرجل هو القس توم باجشو .

دخل القس باجشو يتهادى فى مشيته .. ويده فى جيب سرواله ، وذيل سترته فوق معصمه ، واوما براسه الى سبير فى استخفاف قائلا : هالو سبير
وابتسم الى مابل فى استخفاف وهو يجلس على حافة المنضدة ويطوح احدى ساقيه فى استخفاف وهو يقول فى استخفاف كذلك :

— نعم صباحا يا مسز سبير . اتطرزين ؟
وكاد سبير يعتقد ان القس المحترم ليس فى بيته ، وانما هو الذى يحظى بشرف الحلول ببيت القس المحترم!

***

جلسوا الى المائدة ، ووضعت الخادم صحفة فضة كبيرة امام مابل .. واخرى امام سبير .. ثم رفعت الغطاء عن صحفة مابل لتوزع منها على الاطباق .. وازاح القس المحترم اصيصة زهر تحجب عنه الصحفة ليرى ما فيها ثم قال : لا احب السالمون .
وكانت الاصيصة تحجب عنه الآن صحفة سبير فازاحها ثم قال :
— ولا الكستليتة .
فهتفت مابل : يا للاسف ! لقد استحضرت هذا السمك خصيصا من تيدبورو .

اجاب : سآخذ شيئا من هذا الفخذ .
وقام الى فخذ خنزير مملح على البوفيه ، فاقتطع منه قطعا كبيرة .
كان الرجل فى بيته دون شك!
ثم قال مخاطبا مابل : لن تكون بك حاجة بعد اسابيع معدودات الى استحضار شىء من تيدبورو ، فان حوانيت السوق تعمل بمجرد اتمامها ، وقد احضرت بالامس اثنين من باعة الاسماك .
وهتفت مابل : اثنان ؟
قال : اثنان . انى اشجع المنافسة والجد ، ولن يستسلم احد بالضاحية الجديدة للنوم .
فقال سبير : وفيم ينتفعون بغرف النوم اذن ؟
واشار القسيس المحترم اليه بشوكته ، وقال بعد ان فرغ من ازدراد قطعة كبيرة من اللحم : ما احسبك لتشعر بما يجرى من حولك ، وما يحتمل الامر الهراء والهذر ، ثم انى لا احب الهراء والهذر .
فقال سبير فى نفسه : قاتلك الله ، انت فى بيتى!
واستطرد القس باجشو قائلا : ان هذه الضاحية تخرج الى الوجود من حولك دون ان تدرى ، ولكنها ستمثل الحياة على ما ينبغى ان تكون الحياة بل لسوف تفعل اكثر من هذا .. ستحمل الناس حملا على العيش كما ينبغى ان يعيشوا . لن تكون الضاحية معبدا ولا مقبرة ، وانما هى رمز مجسم وصيحة مدوية عالية .
خال سبير ان الرجل يخطب حشدا من الاساقفة والسلات وانه يسمع هتافهم وتصفيقهم . ولكنه لا يدرى كيف يعامل هذا الرجل ، فانه ليشعر فى حضرته انه صبى يافع فى الرابعة عشرة من العمر!

***

ظل هذا الشعور ملازما لسبير طوال الطعام وهو يصغى الى محاضرات القس المستفيضة لزوجته ، واجوبة زوجته الحاضرة المشرقة ، فلم يسعه الا ان يقول فى نفسه : لا قبل لى بهذا الرجل ولا بغيره من معارف مابل ، فما اجد سبيلا الى الكلام حين يتحدثون . فهم يفكرون فى اشياء الم بها وافكر فيها ، ولكنى اعجز دون بسط افكارى لهم ومناقشتهم فى افكارهم . ان لهم جميعا آراء يتشبثون بها ويناضلون دونها فى شدة وعنف ، اما انا

فلا املك غير الغريزة الطليقة من الأغلال والقيود .. الغريزة التى تنقد الاشياء في غير تحيز ولا تعصب ، وتلتمس الحقيقة حيثما كانت ما استطاعت الى ذلك سبيلا . والآراء المبنية على التحيز تسقط على التفكير الطليق سقوط المطرقة الثقيلة على البيضة الهشة .

وكان القس باجشو يقول لمابل : ولن يكون للفقراء مكان في ضاحيتنا .

لن تكون فيها ازقة ضيقة قذرة ، ولا ابنية حقيرة تتأذى بمنظرها العيون . سيكون كل شيء بهيجا رائعا حيثما ارسلت البصر .

فهتف سبير : هاك ! لقد نطقت بالحقيقة !

والتفت اليه باجشو متجهما وسأله : نطقت بماذا ؟

شعر سبير انه يقدم بيضة لمطرقة باجشو الثقيلة واجاب : بانه لن يكون للفقراء مكان في ضاحيتكم الجديدة . الم يقل الانجيل ان الفقراء معنا في كل حين ؟

– بلا ريب . ولكن اتعرف لمن قيلت هذه الجملة ؟ انها قيلت ليهوذا الخائن .

لقد تحطمت البيضة تحت المطرقة !

وقال سبير في ضعف وتخاذل : ولكنهم على اية حال « معنا كل حين » واذا كنتم تريدون انشاء مكان تتمثل فيه الحياة على ما ينبغي ان تكون فما ادرى كيف توصدون ابوابه دون الفقراء . أليسوا جزءا من الحياة ؟ ان لهم مثل حقنا او اكثر في النجاة من الازقة القذرة والابنية الحقيرة . معنا دائما .. ولا عبرة بمن قيلت له .

– بل في هذا الاعتبار ما ينقض حجتك ويفحمك . انما قيلت هذه العبارة ليهوذا الخائن لانه كان يحاول ما تحاوله الآن انت .. كان يبغى التحلل من واجباته نحو الله بدعوى الرحمة بالفقراء . ولو اعتدل الناس في تقدير واجبهم نحو الفقراء ، وزادوا من تقديرهم لواجبهم نحو انفسهم ، لكانوا اقدر على خدمة اخوانهم من بني الانسان فقراء او اغنياء ، وهذا ما اراد من ضاحية الحدائق ان تفعل لاهلها ، وهذا ما هي فاعلة لاهلها .

وطعن صحفة الفاكهة بمقبض سكين امامه فانشطرت ، فنحاها جانبا واخذ صحفة غيرها ..

* * *

وكان سبير يترقب انصراف القس باجشو على مضض ، وهو

شديد الرغبة في مواصلة سعيه الى اصلاح ما بينه وبين مابل لعله يكون اكثر توفيقا .

على ان القس باجشو لم يكد يحتسي قهوته حتى اقترح على مابل الذهاب معه لتشهد مدى التقدم في انشاء الضاحية الجديدة .

واجابت مابل : انى لأحب ذلك . ولكنك غير راغب في المجيء معنا يا مارك .

قال : كلا .. لا اريد .

* * *

لم تعد مابل الا في موعد العشاء ، وظل سبير اثناء الطعام يحاول تمزيق حجب الصمت ، غير ان لسانه عاصاه فما استطاع ان ينبس بحرف .

كانت تعلم انه ترك عمله ليقضي اليوم معها في رياضة ولهو ؟ ولكنها لم تحفل به ، ولم تدعه حتى للذهاب معها ومع باجشو .

وفرغا من العشاء فقصدت مابل الى حجرة الانتظار ، فلحق بها قائلا :

ـ كيف وجدت الضاحية الجديدة ؟

وقالت دون ان ترفع بصرها عن مجلة تقرأها : ايه ! جميلة جدا .

ـ حدثينا اذن بما رأيت .

ولكنها مضت في القراءة ، وبعد قليل وضعت المجلة على ركبتيها والتفتت اليه قائلة : الضاحية ؟ اجل .. انها لبديعة ، وكان يحسن بك ان تأتي .

فاستلقى على احد المقاعد وقال : انك لم تلحي على في الذهاب .

اجابت وهي تتثاءب : اجل .. كنت اعلم انك لا تهتم بذلك .

ثم تثاءبت مرة اخرى واردفت قائلة : انى لأشعر باشد التعب اذ سرنا كثيرا .

ـ ما اظنك انكما قطعتما بضعة اميال ، وان باجشو لم يترك بالضاحية مكانا الا طرقه .

فاعتدلت مابل في جلستها وقالت : هو شديد الاعتزاز بها ومن حقه ان يكون كذلك ، فان له اكبر الفضل في اخراج الفكرة الى حيز الوجود .

وضحك سبير قائلا : اجل .. انه لرجل عجيب لا يتقيد بتقاليد رجال الدين ولا يلتزم حتى في ثيابه حدودهم ! ولكن ماذا عساه يفعل حين يضطر الى ارتداء الزي الديني ؟

- ماذا تعنى ؟
هذه بوادر « الاشتعال » ! فما الذى يستفزها ؟
وقال سيير فى اضطراب : عندما يصير اسقفا .. الا ..
ولكنها قاطعته فى ثورة وانفعال : ما احسب هذا الا سخرية وتهكما !

- سخرية ! ما هذا القول يا عزيزتى ؟ انما انا جاد فيما اقول . ولا ريب ان رجلا له مواهب باجشو وكفاياته لا ينتظم سلك رجال الدين الا وفى عزمه بلوغ اعلى الرتب ، ويبلغ باجشو رتبة اسقف بلا ريب ، ولو انه عدل عن رايه واراد ان يصير قاضيا او وزيرا لما وقفت فى سبيله عقبة . انه من ذلك الصنف !
- كنت موقنة انك تتهكم .

- ما اتهكم قط يا مابل ، وباجشو ذكى اريب .
- تقول انه « من ذلك الصنف » وهو عين السخرية . وكل ما يصدر عنك لى او لاصدقائى يكاد لا يكون الا سخرية لاذعة ، وفى كلماتك دائما من المعانى غير ما يدل عليه ظاهرها . ان سواى يلاحظ هذا عليك ، ويقول انك مسرف فى السخرية والتهكم ، وهو تعبير مهذب ..

- على رسلك يا مابل . اقسم اننى لا ارمى الى التهكم ، واقسم ان باجشو لا يرى فى هذا الراى ، وانما يعدنى مغفلا ابله . اذكرى ما دار من الحديث اثناء الغداء !

وكانت نيران غضبها قد تأججت وتطاير شررها فهتفت : اجل .. هذا ما اعنيه . ان كل كلمة تفوه بها من يزورنى من الاصدقاء لا تلقى منك غير المناقشة والاعتراض ، وهذا ما اسميه سخرية .

قال فى هدوء : ليس هذا من السخرية فى شىء ، فلندع هذا الموضوع .
ولكنها لم تكن تريد الوقوف عند هذا الحد فراحت تقول :
- بل هى عين السخرية وان لم يفطن اليها سواى .

***

ورأى سيير ان مراجل غضبه وشيكة الانفجار وهو لا يريد ذلك ، فهتف قائلا : انى لا اقصد الى السخرية على كل حال ، ولكنها طريقتى لسوء الحظ .

اجابت وقد عبرت بعينيها ومضة غامضة : شد ما ارجو ان تكون لك طريقة سواها مع اصدقائك !

قال : ما احسبنى من الشر بحيث تصفين ، وما ارى الا ان اصدقائى واصدقاءك سواء .
وسرعان ما وضح له معنى تلك الومضة الغامضة العابرة اذ قالت : لعل اصدقاءك قد بدءوا يعودون .. الليدى تايبار .
فانطلق غضبه الحبيس من عقاله فلم يقو على كبحه وقال : لا تبدأى هذا السخف من جديد .
قالت : ما ادعوه سخفا .
- بل تدعينه شذوذا !

فتهيأت للقيام وهى تقول : اجل .. كان مسلكك اليوم شاذا حقا . تلك العودة المبكرة العجيبة !
قال : لقد اوضحت لك سبب عودتى . كنت اريد الاستمتاع معك باجازة سعيدة وبالها من اجازة بالغة منتهى الغرابة !
- غريبة حقا ! واغرب ما فيها مجيئك فى موعد وصول تلك الرسالة تماما ! قبل ان تصل الى يد سواك !
وعراه شىء من الدهشة لهذا الاتفاق العجيب فاساءت تاويل دهشته وظنت انها قد احرجته والزمته الحجة ، وارادت ان تستفيد من ذلك فقالت :
- ربما كنت تعرف ان تلك الرسالة آتية ؟
- وكيف كان يتهيأ لى معرفة ذلك ؟
ففكرت لحظة ثم قالت : لعل الليدى تايبار اخبرتك ؛ فقد تكون لقيتها .

ولقد اتفق لى ان التقيت بها قبل عودتى بثلاث ساعات وبدت عليها امارات الخيبة والفشل فقالت :
- علمت بذلك من اللورد تايبار اذ التقينا به فى الضاحية !
ادرك سيير انها حاولت ايقاعه فى شرك .
واستطردت تقول : انك لم تخبرنى بهذا اللقاء ، افليس هذا غريبا ؟
- ليس فى الامر شىء من الغرابة ، وحسبى من آل تايبار ما لقيت بسبب الرسالة !
- وهل كنت تطلعنى عليها لو لم ارك تأخذها من ساعى البريد ؟
- ما كنت لافعل ذلك فى الحقيقة ، فما اجهل انك تجدين فيها شيئا من الغرابة والشذوذ !
ورات ان لا موضع لحسن الظن بعد هذا الاعتراف الصريح ، فوثبت من مقعدها محنقة ثائرة ، واندفعت خارجة من الحجرة

دون ان تنطق بكلمة ! واغلقت الباب بشدة زلزلت منها الجدران وسقط اناء زخرف فتحطم وتناثرت شظاياه .

***

وراح سيبر يفكر في تحطم الاناء ، كما فكر نيوتن في سقوط التفاحة .

ان عليه اثم هذه الجريمة النكراء دون ريب ، بتقليبه الصحيفة في الصباح وعودته المبكرة ، وحديثه النابي عن القس باجشو !

بيد انه عندما استلقى على فراشه تبين ان له في جريمة تحطيم الاناء شريكا وما هذا الشريك الا تونا .

واسترسل سيبر في تفكيره المنطقي : لو لم اقابل تونا لما استيقظ نائم الذكريات ، وانبعث ماخبا من اللواعج والشجون ، ولما عدت الى المنزل .

ولو كان ذلك اللقاء اول لقاء لنا لما اثار بنفسي شيئا من الهم والشجن . فان هذا الألم المبرح الدفين يرجع الى تسع سنوات خلت . يوم آثرت على اللورد تايبار ولرفضته دوني زوجا .

فلو لم تقترن تونا باللورد تايبار لتزوجت بي ؛ ولو تزوجت بي لما تحطم الاناء .

ان تونا هي التي حطمت الاناء .. ما في هذا من ريب !

الفصل الرابع

زارته تونا في مكتبه بعد ذلك بثلاثة ايام . ومن العجيب انه لم يرتسم في ذهنه من تونا غير محياها المشرق ، مع انه لا يكاد يرى من كل امرأة سواها غير ما ترتديه من الثياب .

ووقفت تونا عند دخولها كأنها تشعر انها اتت امرا اداً وهتفت :

ــ هالو ماركو ! الا تنقم مني مجيئي الى هنا الآن ؟

قال : انه مدهش جدا .

قالت : هذا تلطف في التعبير .. وددت لو قلت بدلا من ذلك انه بديع جدا ! على اية حال صافحني يا ماركو وتكلف الجذل والابتهاج .

بسط سيبر يده وهو يضحك ، ولكنها خلعت قفازها ثم اخذت يده قائلة : ها نحن !

ها نحن !

نطقت بهذه الكلمة كأنها اتمت عملا طالما تاقت نفسها اليه ،

او كما ينطلق بها من اضناه السير وبرح به التعب حين يتهالك على المقعد .

ثم طرحت بقفازها الى احد المقاعد وسارت الى النافذة وسألته :

ــ هل وصلتك رسالتي ؟

ــ نعم .

فسألته وهي لا تزال تنظر من النافذة : ولماذا لم تأت ؟

ــ أوه .. لا اعرف . كنت على وشك الذهاب .

قالت : حسنا .. لم يكن من مجيئي بد .

***

وغادرت النافذة فجأة ، واقبلت نحوه وقد عاودها الجذل والاشراق ، وقالت في لهجتها المازحة الاولى : اعرف انك تكره مجيئي هكذا ، فانك لتحس قلقا وانزعاجا كلما رأيتني يا ماركو . احب ان اعرف ما خالجك من الشعور عندما انبأوك بمقدمي .

وهم سيبر بالكلام .

ولكنها استطردت قائلة : كلا .. لا اريد . اوثر ان اعرف ماذا كنت تفعل قبل ان ينبئوك . حدثني بهذا يا ماركو .

اجاب : اظن انني لم اكن افعل شيئا . كنت افكر .

ــ وان احب حالاتك الى لحالتك وانت غارق في مهامه التفكير . الا حبذا لو كان في وسعي ان اعيش في عالم خاص من افكاري مثلك !

وضحكت .. فقال سيبر : واين تعيشين يا تونا ؟

ــ اني لا اعيش .. انما اتحرك فقط .

وصمتت برهة ثم اردفت : كالشيء المغرق في اليم !.

فقال سيبر : اظن هذا ما كنت افكر فيه عندما جئت يا تونا . كنت افكر في اننا نجتاز الحياة كالشيء المغرق في اليم . ألم ترى شاطئا قد انحسر عنه الماء ، وخلف عنده قطعا من الاخشاب وطباقا من الزبد وغير ذلك مما يدفعه الموج المصطفق ، ثم لا يلبث التيار ان يجرفه فيسير معه الى حيث لا نعلم ؟ انه يجيء ويطفو ويذهب .. أفليس هذا من الغموض بمكان يا تونا ؟

فقالت في صوت ناعم يخالجه التأثر : اجل يا ماركو .. انه لسر خفي غامض . لقد رأيت مثل هذه الاشياء الطافية ذات مرة وخالجني من الشعور مالا قبل لي بوصفه . ولكني مددت عصا واخرجت قطعة من الاخشاب التي تضطرب فوق الامواج الثائرة كي انقذها من ذلك المصير المجهول .

ـ افعلت هذا يا نونا ؟

ـ وهل تظن هذا شبيها بالحياة ؟

ـ ان الحياة لا تكاد تختلف عن هذه الصـــورة الا في ذلك الشخص الرحيم الذي يمد عصاه لينتشل بعض المغرقين ويردهم الى السلامة والأمن .

لست على ثقة من وجود هذا المنقذ الكريم ، ولعل هذا هو ما نطمح اليه جميعا .

على انه ما عتم ان قال ولكنك لست من المغرقين ! وكيف يمكن ان تكوني كذلك في الحياة التي اخترتها ؟

وتراءت في عينيها نظرة محزنة اليمة كأنه ضربها ضربة قاسية فراحت تتوسل اليه الا يوجه اليها ضربة اخرى ! ثم اختفت تلك النظرة .

* * *

بيد أنه لم يلبث ان تمالك نفســـه فقال : دعينا من التفكير ومسارحه ولاحدثك بما وقع لي يوم التقينا .

ان مورتشون قد وعدني أن يدخلني في الشركة منذ دهر مضى .

قالت : وكان خليقا به ان يفعل ذلك منذ دهر مضى يا ماركو .

ـ ولكنه قد بكت بوعده فعلا لا قولا

وقص عليها قصة نوايتنج ثم قال :

ـ وانه لعمل غير صالح من مورتشون .. أليس كذلك ؟

اجابت : ان هذا يحزنني اشد الحزن يا ماركو .. قد لا يعتبك بانة عين يتقرر بها هذا الامر الى عملك . ولكن هذه الكتب كالابناء الاعزاء ؛ فليس يرضيك أن يستهين بقدرها احد

فضحك سبير وقال : هذا هو الشعور الذي يخالجني .. على ان هــذه الكتب كلها ليست من تأليفي . فهي أدنى الى ان تكون ابنائي بالتبني .

أجابت : ولكنك مع ذلك صاحب الفكرة فيها ، ومبتكر طريقتها .. والمشرف على وضعها .

وذهب الى الرفوف واخـــذت تستعرض الكتب في عطف وحنان .. وتدلي بملاحظاتها في لهجة تسيل رقة وتشف عن اهتمام .. فاحس سبير أن ما يخالجها صورة صادقة مما يعتلج بصدره ، وان عواطفهما لتتفق تمام الاتفاق . وافكارهما تتشابه كل المشابهة

وقالت : ما اظنك الا كنت معتزا بهذه الكتب ؛ وما احراك بأن تعتز بها . ومايل .. الا تحس مثلك بالفخر والاعتزاز ؟ .

قالتني سبير وهو يقول : حسنا . حسنا هذا .

راحت نونا تلمس كل شيء في رفق وحنان ، ولنظر الى كل شيء في جد واهتمام وشعر سبير ان هذه الغرفة لن تكون بعد اليوم كما عهدها ، فقد تركت بها هذه اللمسات والنظرات آثارا لا تقوى على محوها الايام والاحداث وستظل توحي اليه بآيات القوة والعزم

شعر في حضرة نونا أن هذه الاغلال التي تصفد ذهنه تتحطم فينشط حرا قويا ، وبهذه الجدران القاتمة التي تطبق على نفسه تتهدم فتحلق في اجواز الفضاء طليقة مرحة .

وقال : ساخبرك بما يجيش في صدري يا نونا . اني اريد الانفصال عن هذه الدار وانشاء دار للنشر على غرار مطبعـــة اوكسفورد وكامبردج . ولئن قدر لمشروعي النجاح فلن يقف عند حد ا

فهتفت نونا : يجب ان تقدم على ذلك !

والدمع يسرد لها تفاصيل مشروعه ، ويفضي اليهـــا بما طال احتباسه في صدره وهي تصغي اليه في اهتمام وعطف واكبار .

ولما فرغ من حديثه قالت نونا : كنت اعلم دائما انك خليق بجلائل الاعمال . على انه لا عبرة بالعمل ذاته ، وانما العـــبرة بصاحبه .

قال : ان كان هذا هو القياس عندك فما اخف موازيني ! انني رجل يشيش خائل كما تعلمين .

ـ لست من السوء بحيث تقول .

ـ انك لا تعرفينني ؛ لقد غدوت فظا مزعجا خـــلال هذه السنوات .

ـ حدثني عن مدى فظاظتك وهولك . أتعتقد مايل انك فظ هائل ؟

ـ سليها ! اني ابغض الناس الذين يمكن أن يلقاهم المرء .

ـ سر في حديثك الى النهاية يا ماركو ، فاني احب ذلك .

ـ كيف ؟ تحبين أن تعرفي مدى شناعتي ؟

ـ بل احب الاستماع الى حديثك ، فان صوتك عذب رقيق ؟ ويروقني الاصغاء اليك حين تتعثر في الافصاح عما يدور بخلدك .. وما سر شناعتك ؟

قال : اني شنيع يا نونا لانني تعودت النظر الى الاشياء من مختلف وجهات النظر لا من ناحية واحدة . والناس يضيقون بهذا

النحو من التفكير اشد الضيق . ليست لى آراء مستقرة أتشبث بها وأتحيز لها ؛ وانما اتقلب مع الحق والتمسه حيثما كان ، ولعلك تعرفين ان هذا وخيم .

فسألته فى رقة : وخيم علام يا ماركو ؟

واوشك ان يجيبها « على سعادة المرء » ولكنه نظر اليها ثم حول بصره قائلا : على كل شىء .. على نجح كل مسعى . انما ينجح الساسة والعظماء لانهم ينظرون الى الامر من ناحية واحدة ؟ ويحشدون قواهم كلها فى تلك الناحية وحدها . وهيهات ان تلقى النجاح ما لم تقتنعى برأى معين فى كل شأن من الشئون ، وتعتقدى فوق ذلك انك على حق فى ذلك الرأى دون الناس اجمعين

ثم تضاحك سيبر واستطرد قائلا : وما اظن قط اننى على صواب فى شأن من الشئون فضلا عن الاقتناع ، وانما ارى ما فى آراء غيرى من صواب كثير او قليل

قالت : يسرنى أن اراك على ما عرفتك من صدق النظر والانصاف فى التقدير يا ماركو ، ويسرنى انك لا تملك من هذه الخطة المثلى تحولا .

❋ ❋ ❋

جلست نونا قبالته تنظر اليه فى لذة وحنان ؛ وتشجعه بالاقبال على حديثه على الاسترسال فى نجواه . وقالت : استمر فى حديثك ؛ وهيهات ان اتركك تكف عنه . لقد نبهتنى الى الوسيلة التى يتوسل بها الناس الى النجاح فى هذه الايام وانك لمن الصادقين

قال : سأحدثك عن شىء آخر كثيرا ما افكر فيه يا نونا ؛ فان وجودك هنا الآن يوجه فكرى اليه .. التقاليد !

فابتسمت نونا وقالت مداعبة : مسكين يا عزيزى ماركو ! اترى من الخطأ الفاحش حقا ومنافاة التقاليد أن نخلى الآن بعضنا ؟

وهز ماركو رأسه وهو يقول : لا شىء من هذا على الاطلاق . وانما هو يدل على انك لا تعبأين مثقال ذرة بما اصطلح الناس على فعله او تحاشيه ، وهذا يعيد الى ذهنى خواطر كثيرا ما خطرت لى من التقاليد

ــ قل ...

ــ ان التقاليد كما تعلمين من اشد الاشياء غرابة وغموضا . انها قانون اختلقه المجتمع لحماية نفسه وتنظيم شئونه ، ولو كلفت نفسك تفحصه وتمحيصه لرأيت العجب العجاب . هو من وضع طوائف العجائز فيما أعتقد ، ولعل هذا أعجب ما فيه ؛ فلو اجتمع

فطاحل المشرعين فى كل عصر من العصور التى مرت بالانسانية على ان يأتوا بقانون مثله او قريب منه لاعجزهم ذلك، ولما استطاعوا بكل ما أوتوا من علم وذكاء ان يفعلوا بعض ما فعلته الشعوب من تلقاء انفسها . وهذا هو ما يروقنى فى التقاليد

على انه ما لبث ان قال فجاة : الا ان القول ليشط بى فلماذا لا تمنعيننى من هذا الهذر ؟

اجابت : ذلك لانى احب حديثك ، واحب ما يعرو وجهك من الاحمرار حين تسترسل فى الحديث. ولكن استمر ، فانى سأعارضك الا انى اعتقد ان معظم التقاليد سخيف بغيض يا ماركو . انى امقتها.

قال : نعم ، نعم . فى وسعى ان افهم ما تعنين . ان التقاليد لتغدو احيانا بغيضة نابية ، بل انها لتغدو اكثر من هذا . انها لتكون قاسية بالغة منتهى القسوة . ولعل هذا اقرب ما فى التقاليد واولاه بالبحث والاهتمام . انها فى تطبيقها تكون فى اغلب الاحوال خاطئة عنيفة جائرة ، على انك لو فحصتها فى اقسى حالاتها وانآها عن الرشد والانصاف لرأيت اساسها سليما بريئا من النقص والسفه واليك المثال على ما اقول .

انظرى الى ما خاضت فيه الصحف مؤخرا مما يدعونه مشكلة الامهات غير المتزوجات ، وانها لحالة تتجلى فيها القسوة فى ابشع صورها واقبح اوضاعها : تزل فتاة من الفتيات الى مهواة الاثم والعار ، ولا تزال ابدا طريدة مشردة ما تشبثت بوليدها وابت التخلى عنه ، فكل باب يوصد دونها ، وابواها يتنكران لها ؛ وليس بين الناس من يرتضى ان تكون له ادنى صلة بها . على انك لتخطئين اذا اتحيت على المجتمع باللائمة لهذا المسلك ، فانه لا يجاوز الصواب فيما يفعل، ولولا هذا التقليد المرعى ، لضاقت الارض باولاد السفاح .

قالت : اجل يا ماركو . انى لارى ما فى التقاليد من حكمة مطوية الا عن الباحث البصير ، وسافكر دائما فى اساس التقاليد حين تشق على وترهقنى .

اجاب : هذا راى حميد ، وانه ليعينك على تفهم الاشياء على وجهها الصحيح ، ومحال ان تدرى ما فى الحياة من اسرار وخفاء مالم تسلكى هذا السبيل .

وقالت نونا : لا تزال يا ماركو على ما عرفت من التعمق فى التفكير ونفاذ البصيرة ، وارى انك لم تتغير بعدى .

اجاب : اننا لم نفترق غير سنتين يا نونا ، وهذه فترة لا تتسع للتبدل .

وقطع عليهما حبل السكون صوت بوق سيارة انبعث من الطريق قويا متصلا ، وخيل الى سيير ان هذا الصوت المزعج قد نال فوق ما ينبغي ، وانه اشبه بحشرجة الدجاجة المذبوحة ، فهب واقفا وهو يقول :

— اى شيطان يرسل هذا الصوت ؟

واستمر الصوت البغيض ، فتحركت تونا كأنها تستيقظ من حلم سعيد ، وارتسمت على محياها امارات الالم وقالت : اليس هذا فظيعا ! انه تونى فى سيارته ، فلقد اخبرته انى آتية الى هنا .

ثم نظرت الى الساعة واردفت : ان الساعة الآن الاولى يا ماركو ؛ وقد مضى على هنا ساعتان ما كان اقصرهما .

ولم تكف تلك الدجاجة الضخمة عن حشرجتها الاليمة فهرعت تونا الى النافذة وهى تصيح : يا لله من هذا الصوت ! تونى ! حسبك بوقك !

كانت السيارة الفخمة واقفة عند الباب ، واللورد تايبار يدير آلة الصوت بلا توقف ، وقد جلست الى جانبه امرأة غير عادية الجمال ملتفة بالفراء ، وقد وضعت اصابعها فى اذنيها .

وكان منظر اللورد وصاحبته وانها يتوقف الانتظار ، فاجتمع حولهما جماعة من المارة ينظرون اليهما فى عجب وفضول .

ورفع المشاهدون ابصارهم الى تونا عندما سمعوا صوتها ، وكف اللورد تايبار عن ادارة آلة الصوت ، ثم رفع عينيه وعلى وجهه ابتسامته العذبة الآسرة ، كما رفعت صاحبته اصابعها عن اذنيها ورفعت محياها الوضاء الجميل

هتف اللورد تايبار : هالو ! هل قيض لتنهداتى ان تصل الى مسمعك ؟

اجابت تونا : هذه الضجة المزعجة ؟ الا انه ليجب ان تحاكم عليها !

فقالت السيدة الجميلة فى صوت جميل : اذا اردت ان تحاكمى قبله ! انا فى هذا الامر جميعا سواء !

وقال اللورد تايبار : ليس فى الصوت ما يزعج او يستوجب المحاكمة ، فما هو الا زفرات زوج يسترحم زوجته .

ثم ادار بصره وقال : طاب صباحك يا مس فورشون . هل عرفت صوتى وانا انادى زوجتى ؟ لقد كان يخنقه البكاء . ولكن لعلك لم تسمعه .

فقال سيير : يالله .. ان فورشون فى نافذته . سانزل معك يا تونا .

وسألها وهما يهبطان السلم : من هذه التى تجلس معه بالسيارة ؟..

— صديقة له فى ضيافتنا .

ورابه قولها « صديقة له » دون « صديقة لنا » وتحاشيها ذكر اسمها .

وحياهما اللورد تايبار قائلا : ان تيدبورو باسرها تعرف اين كنت يا تونا وانه لمكان حسن .

ثم قال للسيدة الجالسة معه : انظرى يا بيجو الى هذا المبنى المروض بالواجهة ، انك لا تذهبين الى الكنيسة قط ، فمن الخير ان تعرفى انهم يعظون الناس فى الكنائس من اعلاه .

فاجابت السيدة : شكرا . انى اذكره ، فلقد عقد زواجى فى كنيسة على الاقل .

وقالت تونا : وانك لتذكرين دائما كذلك انك متزوجة بطبيعة الحال . اليس كذلك ؟

نظر اليها سيير نظرة سريعة اذ كان صوتها حادا فاترا لا يشبه صوت تونا !

اجابتها السيدة المدعوة بيجو : دائما . وانت كذلك .. اليس هكذا يا عزيزتى ؟

وارتدت عيناها الجميلتان عن تونا الى وجه سيير حيث استقرتا برهة ؛ ثم تحولتا الى اللورد تايبار بابتسامة .

وكان اللورد تايبار يقلب طرفه بينه وبين تونا ، وفى نظراته تلك السخرية الغامضة التى لمحها سيير يوم التقى به وبزوجه فى الطريق الى تيدبورو

وقال اللورد : انك لا تعرفين مستر سيير يا بيجو ؟ هذه مسز ولفريد يا سيير ، وهى امرأة غامضة تكتنفها الاسرار

فهزت المرأة الغامضة كتفيها قائلة : ان تونى لأحمق مجنون

وهنا قالت تونا فى ملل : ألعلنا ننوى المسير فى يومنا ؟

فسألتها السيدة المدعوة بيجو دون ان تتحرك من مكانها :

— هل تريدين الجلوس هنا ؟

اجابت : كلا .. ساجلس فى الخلف ..

وصعدت تونا الى السيارة ثم قالت فى صوت واهن يبدو فيه الكلال والاعياء :

— الى الملتقى يا ماركو .. ان كتبك ممتعة ، وكذلك حديثنا

ثم انطلقت السيارة مسرعة

ظل سمير نهاره يفكر فيما كان بينه وبين نونا .. ويحدث نفسه بما بينها وبين اللورد تايبار من التوافق والتطابق ،فكلاهما مرح لا يكف عن اللهو والابتسام ، وكلاهما لا ينفك عن المجون والعبث مادام مع صاحبه ، غير ان اللورد لا يترك المجون قط سواء اكان مع زوجته أم مع غيرها ، اما نونا فلا تكثر من الدعابة والعبث الا مع زوجها .

وفكر سمير : ولقد كانت نونا تحبنى حتى اعترض سبيلها تايبار فآثرته على وارتضته زوجا .. ولقد وفقت فى اختيارها، فانه كفؤ لها وهى كفؤ له اما انا فادنى الى الحزم والجد ، وان نونا لتنأى متى هذا الجد ، وكثيرا ما اتخذته موضوعا للدعابة والمزاح ، بل لقد قالت لى اليوم (انك لغز يا سمير) .

ولكن لا .. فما كانت اليوم مازحة ولا ساخرة .

ما معنى قولها (ها نحن ..!) وهى تابى ان تصافحنى قبل خلع قفازها .. وما معنى قولها (لم يكن من مجيئى بد) وماممعنى قولها (انها كالشيء المغرق فى اليم) ؟ لماذا ؟ وكيف يمكن ان يساورها هذا الخاطر فى حياتها مع تايبار ؟

ولقد سالتها فى صوت تنم نبراته عن الغضب : وكيف يمكن ان تكونى كذلك فى الحياة التى اخترتها ؟

ويا لله من آيات الحزن والالم التى ارتسمت فى عينيها اذذاك

انها اختارت تايبار على بعد التروى والتفكير ، ولم اوجه اليها حينذاك كلمة لوم أو تأنيب ، بل تقبلت حكمها فى صبر واذعان ، واقنعت نفسى بصحة الاسباب التى حملتها على هذا الاختيار .. ولقد كنت أحسب انى سلوت حبها ونسيت ماكان بينى وبينها ، ولكن هذه النظرة الحزينة انبأتنى اليوم انى لم أسل ولم انس .

فهل يمكن أن تكون نادمة على هذا الاختيار ؟

واسترسل سمير فى تفكيره : ثم .. هل هى سعيدة حقا ؟ الا ما أغلب لهجتها حين قالت للمرأة التى مع زوجها « انك لتذكرين دائما انك متزوجة » وما أعجب جواب المرأة لها « وانت كذلك ، أليس هكذا ؟ » ثم تلك النظرة الساخرة فى عينى تايبار وهو ينظر الى واليها !

وعادت به الذاكرة الى اليوم الذى انبأته فيه بعزمها على الاقتران باللورد تايبار ، وكيف استقبل النبأ فى سكينة وثبات ، واصطنع عدم الاكتراث كأنه لا يعنيه فى قليل ولا كثير .

وقد كان يعلم ان نونا تحرك فى نفسه ساكن العزم ، وتذكى فى صدره قوة الايمان والامل ، فلما ايقن انها اصبحت لغيره ، قبل ما عرضه عليه ابوه من قبل فاباه ، والتحق بالشركة ؛ والالتحاق بالشركة يعنى فى نظره السكون والاستقرار .

انه بدون نونا يتخبط فى الدياجير المدلهمة ولا يكاد يهتدى سبيلة بينها ، ولقد ظل هذه السنوات الطوال يشعر انه كالسجين المقيد الذى لا يستطيع الانطلاق من سجنه وقيوده .

ولكن ها هى قد عادت ..

ولمثل نفسه جالسا اليها يسألها ما معنى قولها « ها نحن ! » وهى تابى ان تصافحه قبل خلع قفازها ، وما معنى قولها « لم يكن من مجيئى بد » وما معنى قولها انها « كالشيء المغرق فى اليم » ..

الفصل الخامس

زار سمير ضيعة نورثريب بعد أسبوع ، فعلم أن نونا وزوجها لا يمكثان الا فترة قصيرة ، ثم يرحلان الى اسكوتلنده فلا يعودان قبل اكتوبر التالى .

واعتزم الا يسالها عما خفى عليه من امرها الا اذا سنحت الفرصة لذلك ولكن هذه الفرصة لم تسنح رغم انه زارها مرتين او ثلاثا قبل سفرها .

وزارها آخر مرة فى صحبة مابل والماجور ميليت « النطاط » فبالغت نونا فى اظهار البشاشة والبشر ، وتكلف الدعابة والمرح ، ولكنه احس أن وراء هذه المظاهر المتكلفة هما تطوى عليه الجوانح وتجهد فى اخفائه وتكتمه .

ولما انصرفوا تخلف سمير قليلا عن زوجته وصاحبها على السلم ، فلحقت به نونا قائلة : لن اراك ثانية قبل اكتوبر .
اجاب : كلا .. الى اكتوبر .

فقالت فى صوت يمازجه الاضطراب : هل اكتب اليك يا ماركو ؟

ــ انت تعلمين انى لا احسن كتابة الرسائل ..

ونظر اليها فرأى فى عينيها دلائل الحزن والألم .. ثم هبطت السلم وهى تقول :

ـ لنشدتك الله ان تكتب الى يا ماركو ! .

وصعد الى المركبة مع زوجته والماجور ميليت فسألته مابل :

ـ فيم كان حديث الليدي تايار هذا الزمن الطويل ؟ .

اجاب : كانت تودعنى ..

ولكنه كان يقول فى نفسه : وها هو سؤال رابع : لماذا قالت « لنشدتك الله ان تكتب الى يا ماركو » ؟ أم هذا هو الجواب عن تلك الأسئلة التى أعيانى فهمها ؟ .



لم يكتب اليها ..

ولكن حادثا عجيبا وقع فى اكتوبر ، فزاد من رغبته فى الوقوف على ما خفى عليه من معانى عبارات تونا ، وما هذا الحادث الا ان الخادم جنكس المنقبضة اصيبت بصدع فى ركبتها ! .

وكانت مابل قد صرفت شهرين من الصيف مع اهلها فى بوكستون . ولحق بها سير فامضى هناك اسبوعين . ومن غرائب الاتفاق ان الماجور ميليت النطاط كان هناك ايضا ، كما كان قبل ذلك فى بورنموث عندما ذهبت اليها مابل لزيارة بعض اقاربها .. وكانت تشترك مع الماجور فى الرياضة دائما ، فلم يرها سير خلال اقامته الا لماما ..

وعادا الى بيتهما فى سبتمبر ، وقد تم الخط الحديدى وافتتح باحتفال رائع ، فانصرفت مابل الى زيارة المعارف والاصدقاء والاندماج فى الحياة الجديدة الزاخرة ..

ثم أصيبت جنكس المنقبضة المسكينة بصدع فى ركبتها ، فلزمت مكانها من المطبخ حيث كانت تجلس مادة ساقها على احد المقاعد ..

وبرمت مابل بهذه الحال وطفقت تقول لسير ان « هؤلاء الناس » يبالغون فى اظهار الالم والوصب لاتفه الاسباب ، ثم سألته فجأة :

ـ اتعرف كيف حدث لها ذلك ؟ .

واستشف سير ما وراء هذا السؤال فقال :

ـ كلا .. العلى سببه ؟ .

اجابت : اجل .. لقد اصيبت وهى تأتى بدراجتك ..

اشفق سير مما قد يفضى اليه الحديث واراد ان يحول دون الكارثة فقال مداعبا :

ليس الذنب ذنبى يا مابل .. فانت التى امرتها بملاقاتى كل يوم لاخذ الدراجة كأنها جواد مطهم يتصبب عرقا ! .

قالت : ما قصدت ان يكون هذا فى الظلام ..

ورأى سير ان الخطر بات على قاب قوسين او ادنى فقال :

ـ فى الظلام ! .

اجابت : اجل .. وما اعجب الا لتشبثك بركوب دراجتك فى الشتاء .. لقد كان هذا معقولا فيما مضى ، ولا ادرى لماذا لا تركب القطار كما يفعل سائر الناس ..

ـ ذلك لانى مولع بهذه الرياضة ..

ـ من السخف أن تركب دراجتك فى هذه الليالى المظلمة القرة ، وتحت المطر المنهمر احيانا ..

ـ انى لاؤثر هذا كله على ذلك الخالط العجيب الذى يحتشد فى القطارات ..

ـ هذا هو السبب الحقيقى .. ولعمرى ما ادرى لماذا تتحاشى الناس وتجفوهم ولا تتخذ منهم اصدقاء كما يفعل الناس .. ولو اردت أن اصارحك برأيى لقلت انك تراهم جميعا دونك .

لم يحر سير جوابا وقال فى نفسه : هاهى تستفزنى ولكنى لن اغضب !.

وعادت مابل تقول :

ـ اجل .. لست ترى بينهم لك ندا وتطل على كثرة من فيهم من ذوى الفضل والتهذيب ، فان اقدار الناس عندك توزن بذكائهم فيما تزعم ، وما يعلم غير الله اى ذكاء تجد عند آل بيرش وآل فارجوس ! . ثم كثير من الاندية والمجتمعات الخليقة بان ترونك وتستهويك ، ولكنك لا تصيب شيئا من المتاع الا فى صحبة ستر فارجوس بالغازه العبارية السخيفة ، والشاب بيرش الذى لا يملك الحركة دون أن تكون معه امه الابدية الخالدة ! .

قال : وما غرضك من هذا كله يا مابل ؟ .

ان لى صديقات بالضاحية الجديدة يعجبن دون ريب لانك لا تخالط ازواجهن ، ولا تذهب معى الى بيوتهن ! . وانك لتتشبث بدراجتك فرارا من القوم الذين احب ان تنشأ بينك وبينهم علائق الود والصداقة ..

— بل احب رحلتي اليومية فوق دراجتي لانها تسمو بي الى عالم آخر احلق في اجوائه حرا طليقا من الاغلال والقيود .. ثم انني رجل لا احسن التعرف بالناس والاختلاط بهم .. ولقد حاولت أن اشرح لك في أول عهدنا بالزواج ما يعتلج في صدري اثناء هذه الرحلة فلم تفهمني ..

فهبت واقفة وهي تقول في حدة :

— لا افهم من آرائك كلها الا انها خاصة بك لا يشاطرك اياها من الناس غير آل فارجوس فيما اظن .. ولو كنت مكانك لحرصت الا اظهر سواهم على تلك الافكار العجيبة الشاذة .. على انك اذا ابيت الا ركوب دراجتك في الظلام ، فلن اسمح لساورة باستقبالك لاخذها منك حين تشفى ركبتها اذا شفيت !

ثم غادرت الغرفة ..

ووضع سيبر يده في جيبه يريد اخراج علبة السجاير ، فخيل اليه أن اصابعه لا تقوى على الامساك بها .. كانت يداه ترتجفان .

الفصل السادس

في الساعة الخامسة بعد ظهر اليوم التالي ابصر سيبر من نافذة مكتبه تونا وهي تهبط من سيارتها وتدخل متجرا الازياء امام الشركة ، فارتدى معطفه وقبعته ونزل الى الشارع على عجل .. وما كاد يجتازه حتى خرجت تونا فرأته .. وهتفت :

— هالو سيبر ! .

قال : يظهر أن في العالم امرأة واحدة تستطيع مغادرة متجر للازياء في أقل من ساعة ! . انك لم تمكثي دقيقة واحدة ..

— ارأيتني وانا أدخل ؟ . ما أردت ابتياع شيء وانما كنت مترددة .

— في زيارتي ؟ .

واومأت بالايجاب فقال :

— ما رأيك في تناول الشاي بأحد المشارب ؟ .

اجابت : فكرة موفقة ...

واستقلا السيارة الى مشرب بالضواحي ، فتخيرا مائدة منعزلة في احد اركان القاعة على انه لم يكن فيما دار بينهما من الحديث ما يستوجب الانفراد اذ كان كل منهما يجاهد ما يعتلج في خاطره جهادا شديدا ، ويحاول تحاشيه بالتحدث في تافه الشئون .. وكأنما ملت تونا ذلك الادعاء فقالت :

— ينبغي ان اعود الآن ..

وصحبها سيبر دون أن ينطقا بكلمة طوال الطريق ، حتى اذا ما بلغت السيارة حدائق القصر قال :

— ما اسرع هذه السيارة ! . سانزل هنا يا تونا ..

ولم تحاول استبقاءه بل امرت السائق بالوقوف ..

ثم هبط من السيارة وهو يقول : هلا نزلت هنا ؟ .

فغاض اللون من وجهها وقالت : لماذا ؟ .

— لكي نتحدث ..

ومدت له يدها ثم نزلت وهي تقول :

— ما ابرد يدك ! ..



كانت سحب المساء الداكنة تجلل جوانب الحديقة كالسجوف المرخاة ..

وقال سيبر :

— هل تعلمين ان زيارتك لي بمكتبي قبل سفرك تبدو كأنما كانت بالأمس ؟ .

قالت : نعم ..

وكان صوتها خافتا ضعيفا ، ووجهها مشيحا عنه على شدة رغبته في ادامة النظر اليه .. ومس ذراعها في رفق قائلا :

— قفي لحظة وانظري الي يا تونا .. اريد رؤية وجهك ..

والتفتت ورفعت اليه عينيها قائلة :

— ماذا تريد أن تقول يا ماركو ؟ .

وكان في اجفانها شيء يتألق ، وفي جوانب فمها رعدة خفيفة ، وفي حلقها عرق ينبض ..

وقال : بل أريد أن تتكلمي انت فتشرحي لي عبارات نطقت بها .. لقد صافحتني بعد ان خلعت قفازك عندما زرتني بمكتبي وقلت « ها نحن ! » .. وقلت « كان لابد لي من المجيء » .. كما قلت انك «كالشيء المغرق في اليم» . وفي الليلة التي زرناك فيها قبل سفرك قلت : « نشدتك الله ان تكتب الي يا ماركو » .. فهلا كشفت لي عما عنيت بهذه العبارات جميعا .

فضحكت تونا :

— ما اكثر ما تتذكر ! . دعني اجلس ، فساكون اقدر على الشرح والايضاح ..

وسارا الى جذع شجرة عتيق فجلسا عليه

وانثنت نحوه في تثاقل وتمهل ، وبدت له فاتنة رائعة الجمال ، وضاعف شعوره بجمالها من عذابه وألمه ..

راحت تتكلم في صوت خافت متعثر فقالت :

ــ حسنا .. سأنبئك بتأويل ما استغلق عليك يا ماركو .. لقد قلت انني كالشيء المغرق في اليم ، والأشياء المغرقة هي البضائع التي تتحطم عنها السفن فتطفو على وجه الامواج المتلاطمة ، وعجيب ان يخامرني هذا الشعور وانا لا ازال في ميعة الشباب ونضرة الصبا .. ولكن الاعمار لا تحسب بالاعوام بل بالمقارنة بين الحاضر والماضي ، فاذا كنت سعيدا لم يزر بك تطاول الايام .. أما اذا نظرت الى الماضي فرأيته حافلا بألوان السعادة والهناء ، ثم عدت الى الحاضر فألفيته مليئا بأسباب الالم والشقاء ، فان بين الماضي والحاضر في هذه الحالة لشقة بعيدة وهوة سحيقة .. انك لترى نفسك مغرقا في بحر الحياة ، تدفعك موجها الزاخر المتلاطم الى حيث لا يعلم الا الله ..

وبسطت كفها نحو السحب القاتمة وهي تقول : ان هذا لرهيب هائل يا ماركو . لقد غبت عنك سنتين ، وخالجني هذا الشعور اول مرة وانا في الهند ، فشطبت كلمة « مغرق » من القاموس ، وكتبت اسمي بدلا منها فاصبحت « تونا » البضاعة التي تتحطم عنها السفن فتطفو على وجه الماء » .. وكنت انوي تمزيق الصفحة ولكني نسيت فرآها توني ..

ــ وماذا قال ؟ .

شعر سيبر ان حديثها ينقصه شيء حتى تلتئم اجزاؤه .. ويتسق سياقه ، وشعر ان سؤاله هذا سيربط التئام عن الحلقة المفقودة ..

على انها اغفلت من السؤال واسترسلت في حديثها قائلة :

ــ شعرت حينذاك بحاجة ملحة الى الاجتماع بك .. فقد عرفتك مفكرا صادق النظر ، قويم المنهج ، لك آراؤك الخاصة في الواجب والخطأ والصواب .. هذا تأويل ما غاب عنك يا ماركو . قلت « ها نحن » و « كان لابد لي من المجيء » لأني كنت في اشد الحاجة الى لقائك .. وقلت « نشدتك الله ان تكتب الي » لأني اريد ان استمد من رسائلك القوة والعزم ..

فأطرق سيبر الى الارض معتمدا على ركبته بمرفقيه ..

وكأنما شعرت بما أبدت له من لواعج الالم والأسى .. فقالت في رنة حزينة :

ــ لقد عرفتك طوال حياتي يا ماركو ..

قال وهو لايزال يحدق في الارض : ولكنك لم تشرحي شيئا ، اجابت : انني اقترفت خطأ عظيما ياماركو ، لقد خيرت فاسأت الاختيار كان ينبغي ان اقترن بك ياماركو !

فسمعه سيبر انه وهو يهتف في صوت مختنق : تونا .. تونا !.

الفصل السابع

كان يعود مسرعا الى بدبورو وهو يحاول بكل ما اوتي من قوة ان يكبح جماح عواطفه التي افلتت من عقالها ، وان يرد خاطره الشارد الى ما راضه عليه من القصد والاعتدال ، وقد جمحت به الاهواء الثائرة ، وتكشفت امامه آفاق مترامية تلتمع في جنباتها بروق الاماني والآمال ، وتنعقد في اجوائها سحب العقبات والمخاوف كان يجاهد نفسه جهادا شاقا عنيفا ، ويغالب مايجيش بصدره من الاهواء والنزوات ، ويريد ان يلتزم ما اخذ به نفسه من تقديس الواجب . وسلوك محجة الاستقامة .

وما حاد سيبر عن طريق الواجب والاستقامة ، لم يرد على ان هتف باسم تونا حين اصمت فؤاده سهام الالم ، ولم يفه بكلمة واحدة عندما افضت اليه باعترافها الخطير الرهيب .

بيد ان ما يتكشف امامه الآن من الحقائق ، وما يجيش بصدره من الأهواء والنزعات لم يدعان امامه الطريق الذي ينبغي ان يسلكه، واضحا جليا لا عوج فيه ولا التواء ..

ولئن كان قد حاول فيما مضى ان يبسط صدر العذر لما تفعل زوجته مابل ، لقد بات الآن لزاما عليه ان يحتمل كل مايصدر منها، والا يضيق قط بشيء مما تقول او تفعل ، بعد ان اوحت له نفسه بخيانتها .

ان الخيانة لون من القسوة ، والقسوة ضرب من الظلم ، وما يطيق سيبر ان يكون من الظالمين .

على انه برغم هذا الجهاد المضني الطويل ، لم يكن يفتأ يسمع هاتفا يهتف به : لقد قوضت خباءك واوشكت على الارتحال !

ودنا من المدينة وهو يسير بين ملاعب المدرسة ومبانيها ، ولقد كان يستجيب للطبيعة ويتأثر تفكيره بمختلف احوالها وهو يمرض بين الحقول أو يعود على دراجته الى بيته ، وانه ليستجيب الآن لها وقد بدا اكتوبر يحمل اليها نذر الشتاء ، فراحت تتجرد من الخضرة والورق .

وسيبر كعهدنا به يفكر ويطيل التفكير ، ولا يقف قط عند الظاهر وانما يتجاوزها الى الأعماق فيستجلي اسرارها ، ويطلع

على دقائقها . وانه ليستمع الى نجوى الطبيعة فى اكتوبر ، فاذا بها لا تنضو ثيابها فعل البائس القانط . واذا بها لا تجزع مما فى الشتاء من تجهم وعبوس وقتام ، بل هى تنظر الى ما بعد الشتاء ، وتعلم يقينا انها ستستقبل شبابا مجددا ، وتكتسى بعد العرى غلائل مصبغة من النور والزهر ، وتخرج من هذا الجمود والظلام الى عالم يفيض بالحياة والاشراق .

أما بنو الانسان فما يخلصون قط من الشك والياس ، فهم فى الموت يقولون : انتهى الامر اذن ، ولكن دع هذا او ذاك للذكرى . من يدرى ؟ قد يكون الخلود حقا !

واخذ يهبط التل الذى تقوم عليه مساكن المعلمين ، وقد تمشت ظلمة الليل فى حمرة الشفق ، وصغار الطلبة يروحون ويجيئون من حوله .

هؤلاء الشباب جميعا يتهيأون للحياة ، وهذه المساكن لاتكف عن القذف بافواجهم الى بحرها المتلاطم . وكل حى منهم يحسب حين يخرج الى الحياة انه سيعيش حسبما يروق له ، فياله من وهم .. ويا له من ضلال بعيد !.. لطالما رأى سبير الحديد المصهور وهو يغلى فى القدور ويفور .. ثم رآه ينصب فى القوالب .. فاذا به يجمد على الصورة التى يريدها الصانع ، ان مثل تلك القوالب لفى انتظار هذه العصارة الآدمية لتخرجها فيما تشاء الأقدار من هيئات واوضاع .. تلك القوالب المؤلفة من التقاليد والشرائع والجهود التى تتلقى ذلك السائل اللين دون ان يفطن اليها احد ، فتطبعه بطابع هيهات ان يمحى او يزول !..

وانه ليذكر يوم فراقه المدرسة ، حين غادر مسكنه على هذا التل ليهبط الى بحر الحياة ، وهو يجد ويسرع فى الهبوط ظنا بأنه سيحيا الحياة التى يرضاها ، وها هو الآن يجتاز نفس الطريق التى سلكها حينذاك ، وها هو يسائل نفسه : هل صحت احلامه وعاش كما كان يؤمل ويرجو ؟

ام تراه يعيش كما تريد مابل او فورشون العجوز ؟

وما غاية هذه الحياة الحبيسة المقيدة ؟

بل .. انها ارادة تسيطر على حياة تونا وتوجهها فى السبيل الذى تختاره .

***

لقد سألها قبل ان يفترقا : حدثينى عن نفسك وعن تايلر .

وراحت لونا تقترب من تلك الحلقة المفقودة التى اعياه البحث عنها فى رفق ولين ، وتتحدث اليه فى صوت ناعم ينفذ الى سويداء القلوب . ولم تدخر وسعا فى اطراء مواهب زوجها وكفاياته اطراء

يخرج من دائرة السخاء الى الزهو والتفاخر ، وقد وصفته فى لقائها الاول لسبير بقولها :

ــ ان تونى يفعل كل شىء خيرا مما يفعله سواه .

وبدأت لونا اعترافها بالعود الى ذلك المعنى قائلة : انى لا اعتقد ياماركو ان تونى اعجب الناس على الاطلاق ، فهو يفعل كل ما يستطيع الناس ان يفعلوا ، وهو يتفرد دونهم باجادة عمله واتقانه . وليس فى وسعك ان تعرف كيف يعجب به الناس ويحبونه ، وكيف لايستكثرون شيئا فى سبيل ارضائه ولكن حسبك ان تنظر اليه او تستمع الى حديثه ، فما احسب فى العالمين من يعدل تونى جلال منظر ، او عذوبة حديث ، او حسن ايراد .

وراحت تصوره بمثل هذا الاسلوب فى صورة موفقة من السحر والفتنة والجلال ، فهو يضفى على كل مايمس لونا من الروعة والبهاء ، وهو لايعرف معنى من معانى الصعاب او الخطر او الرهبة او المرض او الكلال ، ولا يرى فى الحياة غير الكائنات المرحة الشادية .

وما لبثت ان استطردت قائلة : بيد انه ياماركو فظ غليظ القلب ، بل هو لاقلب له ، ولا ضمير ، ولا وجدان ، ولا مبدأ . وليس باليسير ان يكون هذا قول الزوجة فى زوجها ، ولكنه لايحفل قط لو علم انى قلت لك هذا . كلا . مايسوءه ذلك فى قليل ولا كثير ، بل انه ليحب ذلك ويريده .. انه ليضحك ملء شدقيه .. انه ليجد اعظم المتاع اذا ما رأى ما احدث بنفسى من بالغ الالم والشقاء : أجل .. شد ما يود أن يرى نجاح مسعاه فى دفعى الى الافضاء اليك بما اجنى من الشكوى ، وشد ما يروقه ان يتمكن من حملى على اشياء غريبة هائلة .

وما اكثر ما حاول ذلك وخاصة فى غضون السنتين الاخيرتين ، وليس اشهى الى نفسه من أن يتاح له ان يشير الى ويهتف ساخرا : آها ها .. ها ! آه !

انك لتعلم الآن بعد ماوصفت لك من امره انه مجرد من العاطفة ، لا موضع فى فؤاده للحب او البغض او سواهما ، ولكنه مولع اشد الولع باثارة عواطف غيره واستفزازها ، لقد كان دائم الاتصال بالنساء طوال عهد زواجنا ، ولكنه يتخذهن لهوا وعبثا ، ولا يبقى على عهد احداهن الا ريثما تستهويه اخرى . وهو يأتى ما يأتى من النكر والاثم فى بيتى وبين سمعى وبصرى ، ولا يتحرج من ان يجاهرنى بما يغيب عنى من امره رغبة فى التلذذ بما تحدثه بنفسى من العذاب والالم .

انك رأيت مستر ونفريد . لقد صرم الآن حبالها وبيدها زيلد

النواة ، وهو فى مسلكه حيالهن ليس باكثر تحرجا وتأثما من مسلكه حيالى . وليس من شىء ادعى الى رضاه وابتهاجه من هذا الصبر الممض الذى استقبل به منكراته وآلامه ، فليس فى وسعى ياماركو أن أظهر خيلاته أو غيرهن من الناس على مايجيش بصدرى من لواعج الألم والأسى .

وهكذا أبدو أمام الناس فى مظهر السعيدة الهانئة ، وهو يحبب هذا المظهر اذ يعرف مايسكن تحته من الألم البالغ والهم المذيب . ولكنى لا استطيع أن أبدى الناس غير ذلك ، فما أحب أن يرثى لى أحد .

قال سيبر : انى لأرثى لك .

ـ آه . أنت ..

***

وفيما هو مسترسل فى خواطره وتأملاته وقد بلغ الحى القديم من المدينة سمع صوتا أيقظه من استغراقه كما يستيقظ المرء من نوم عميق ثقيل . ورأى أمامه شابا حاد النظرات ، قوى البنية ، حسن البزة . وعرف فيه أوتوى الضابط بفرقة المقاطعة .

هتف أوتوى : كيف حالك ياسيبر ؟

هل تنوى شهود هذا العرض غدا ؟

وأشار بعصاه القصيرة الى اعلان كبير معلق على « بورصة الغلال » بأن الفيلد مارشال اللورد روبرتس سيخطب هناك تحت رعاية « عصبة الخدمة الأهلية » عن الدفاع الوطنى .

أجاب سيبر وهو يريد المضى فى طريقه : لم أفكر فى الذهاب .

قال أوتوى وهو لايزال يحدق فى الاعلان : بل ينبغى أن تذهب .. ينبغى أن تسمع مايقول الرفيق العجوز ، وما أشك أنه فى ضلال بعيد !

ثم استطرد فى عنف وحدة : أجل ، انه مخطىء أشد الخطأ . وهؤلاء الأغرار الغافلون لايفتأون يتحدثون عن الدفاع الوطنى ولا شىء غير الدفاع الوطنى . ولكنهم يزعمون ان الأسطول وحده كفيل برد كل غزو خارجى ، وان نصف مليون من الجنيهات ينفق على البحرية أجل نفعا من عدة ملايين تنفق على تسليح الشعب ، وانهم فى هذا لعلى حق .

ـ حسنا .. فما اعتراضك اذن ؟

ـ لك الله ياصاح ! الا ترانا فى أشد الحاجة الى جيش برى هائل ، ولكننا لسنا فى حاجة اليه للقتال هنا بل فى القارة ، اننا سنضطر الى خوض غمار الحرب هناك فى أوروبا ..

قال سيبر : ما أفهم شيئا مما تقول . ما الذى يحملنا على القتال فى أوربا ؟

ـ لأن علينا هناك التزامات منها الدفاع عن بلجيكا . ولو لم يكن علينا شىء من الالتزامات قط ، لاضطررنا مع ذلك الى الحرب متى نشطت المانيا من عقالها . هذا ما ينبغى أن يقوله روبرتس لمستمعيه ، وهذا ما ينبغى أن يقوله الساسة الأغبياء للشعب الغافل

قال سيبر مترددا : لم أفكر فى هذا قط ، ولم يخطر ببالى أن علينا التزامات ، وما أخال أحدا من أعضاء الحكومة يقول بذلك .

ـ أعرف أن أعضاء الجمعية لايعترفون بشىء من هذا القبيل ، وان أعضاء مجلس العموم يمضون لهم فى تجاهلهم وتعاميهم . ولو خطر لأحد الأعضاء أن يقف سائلا : هل علينا فى أوربا التزامات ؟ لتجاوبت جوانب القاعة بضحكات السخرية والاستهزاء . حسنا ، ليضحكوا ما شاءوا . وسيضحكون يوما ما حتى تنشق أشداقهم !

ـ أواثق أنت من أن حربا ستنشب ؟

ـ واثق ! يا الهى .. واثق ! الا فاعلم ياسيبر انه لن تمضى خمس سنوات بل سنتان .. لا .. بل سنة واحدة ، حتى ترى هذه الحرب واقعة . انك تعلم اننا أتممنا بعض الدراسات وذهبنا الى بلجيكا لتطبيق العلم على العمل . وذهبت مع بعض رفاقى الى المانيا فأقاموا لنا المآدب فى ثكناتهم . ولقد كان أولئك الجنود الألمان يتكلمون عن الحرب كأنها أمر طبيعى عادى ، كما تتكلم أنت عن مباراة مقبلة من مباريات كرة القدم مع الفريق الذى ستلاعبه .. كانوا يقولون « عندما نقاتلكم » وليس « اذا قاتلناكم » ! عندما ! كأن الحرب على موعد معين لاتتقدم عنه ولا تتأخر ! وما كانوا يتحدثون عن مقاتلتنا هنا فى هذه الجزيرة ، بل تعلم أنت كما أعلم أنا أن الحرب بيننا وبينهم لن تكون الا فى ميادين أوربا . فلماذا لايطلعون الشعب على هذه الحقيقة ؟ لماذا لاينفكون عن التحدث بالدفاع عن شواطئنا والأسطول كفيل بالدفاع عن هذه الشواطىء ؟

وقال سيبر وهو لايملك نفسه من الاعجاب بتحمس أوتوى واخلاصه . وان لم يقتنع بكل آرائه وتنبوءاته : انى أتفق معك فى هذا ، ولكنك تعلم يا أوتوى أن الاقتناع بما تقول ويقول زملاؤك من وشك وقوع الحرب ليس بالأمر اليسير . الا تقرأ الصحف والمجلات ؟ انها لتجزم باستحالة وقوع حرب أوروبية عظيمة ، لأن مثل تلك الجيوش الجرارة لن تجد مجالا للتحرك .. وتموينها لن يكون فى حيز الامكان . وهم يقولون انه اذا نشبت هذه الحرب

فستنهار مالية الدول في الحال ، وستقف رحى القتال عقب ابتدائه. ولست بمن نفهم مثل هذه الشئون ، ولكن حججهم تبدو معقولة واضحة .

وكان اوتوى يصغى اليه في سآمة وضجر فقال : فوات كل هذا وما تفهمه انت طبعا ولا نفهمه سواك . بل مايفهمه اولئك الحمقى الذين جرت به اقلامهم .. هذه كلها نظريات لاتثبت لحظة واحدة أمام الحقائق الدامغة . فلقد هللوا جميعا وكبروا لما استحدثه العصر من أساليب الوقاية والأمان يوم خرجت الى الوجود الباخرة تيتانيك .. وسارت بركابها تمخر اليم وهم آمنون مطمئنون .. فأين تيتانيك الآن ؟ لقد هوت الى قاع البحر ياصاحبى ، وهوى معها الف وخمسمائة من اولئك الآمنين المطمئنين .

وما قيمة النظريات اذا كانت الحقائق ماثلة للعيان .؟ انظر الى ماحدث بيننا وبين المانيا خلال العام الحاضر .. ذهب هالداين العجوز الى المانيا في فبراير « لمحادثات غير رسمية » . وفي مارس هدد تشرشل ببناء مدرعتين نظير كل مدرعة اذا تجاوزوا القانون البحرى الألمانى .. وحكم على برتراند ستيوارت بثلاث سنين وتصف بتهمة التجسس في المانيا ، كما قبضنا نحن على جاسوسين المانيين .

هذه حقائق راهنة ياسير ، ولئن وقعت الحرب .. وانها لواقعة ، فسينتشى الناس الى هذا العام ١٩١٢ ، ويعجبون كيف عميت ابصارهم وسدت مسامعهم دون هذه النذر !

ولكنى ذاهب الآن .. متى تأتى لزيارتنا بالثكنات ؟. يوم الجمعة .؟ ان حفلة الضيوف ستكون في الأسبوع التالى ، وسأرسل اليك رقعة . الى الملتقى .

***

ذهب وتوى فجاة كما ظهر فجاة ، بعد أن اقتحم على سير استغراقه وتأمله وجاء سير من الشركة بدراجته فركبها عائدا الى بيته .. وحديث أوتوى يتراءى في خاطره بين الفينة والفينة .. كما تتراءى تذكارات الحلم بين أضواء اليقظة .

لقد اخبرته نونا أن اللورد تايبار يعلم انها تفكر فيه كثيرا .. وان هذا ليفسر النظرة الساخرة التى لمحها بعينيه يوم التقى به وبنونا في الطريق ، كما يفسر كلمات خليلة منز وتفريد يوم زارته نونا بمكتبه .

ان نونا تحبه ، وكان في وسعه ان يضمها بين ذراعيه ويشى

ما في فؤاده من لوعة الوجد والجوى ، بيد انه لم ينطق بكلمة غرام ولم يرد على ان هتف نونا !.. نونا !.

أجل ، انه يحب نونا ، ولكن عليه لمالك أقدس الواجبات ، وانه لزام تقاضية الواجب ، على جموح العاطفة .

ولكن ما عسى ان يجىء به الزمن في اطوائه !

***

اتم رحلته في الظلام ، وترك دراجته بالفناء وهو يفتقد حكمس التفيضة وتحيتها الحارة المرحة ..

وفتح الباب المفضى الى البهو وهو يحس وحشة لا عهد له بها. وكان السكون عميقا رهيبا لايتخلله صوت ، كأنما اقفر البيت من الأحياء .

ولكن عليه مع ذلك ان يأوى الى هذا البيت المقفر كل ليلة ، وعليه ان يعيش فيما يكتنفه من وحشة وانقباض ، وعليه فوق ذلك ان يجاهد نفسه ويحملها على التزام واجبه نحو مابل حملا !

القسم الثالث

ايفى

الفصـــل الأول

تسير الحياة في طريقها دون ان تحفل مثقال ذرة بما يشغل الافراد ويستغرق اهتمامهم ، فلك ان تقف منهـا الموقف الذى يروقك ، او تغضى عنها وتصرف اهتمامك الى شأنك الخاص . ولك ان تزعم انك قد قطعت مابينك وبينها فما يعنيك من تصاريفها شيء ، ولكنك لن تكون في هذا كله الا كالنعامة التى تدفن رأسها في الرمل دون ان ستحجبها الرمل من يد الصياد .

وقد كانت الحياة في اكتوبر التالى ، اكتوبر سنة ١٩١٣ ، تسير مجدة دائبة بين كثير مما يروق ويعجب ، وكثير مما يستثير الجد والاهتمام ، وكثير مما يحفز الى العمل والنشاط . ولعل الناس لم يشهدوا قط من أسباب الرضى والاغتباط ، وبواعث الجد والاهتمام ، ووجوه النشاط والعمل ، مثلما شهدوا في الفترة مابين اكتوبر سنة ١٩١٢ واكتوبر سنة ١٩١٣ .

فقد تمت ضاحية الحدائق واخرجت للناس في حلل ضافية من الروعة والبهاء ، وجعل الأقوام يأتون من كل فج عميق ليشهدوا هذه الجنة الجديدة .

وكانت الأحداث تترى ، والصحف تفيض بمختلف الأنباء دون

ان يجد فيها سبير مايبرر اوهام صاحبنا اوتوى وخيالاته . وكانما ارادت الاقدار الا تدخر وسعا فى تفنيد مزاعمه ومزاعم من ينحو نحوه من المرجفين ، فتشهد ملك انجلترا وملكتها حفلات زفاف ابنة القيصر غليوم الثانى فى برلين ، وراحت الصحف تطنب فى وصف مظاهر المودة والالفة بين الشعبين .

كذلك اعلن الاميرال ترنتز موافقته على النسبة التى اقترحها مستر تشرشل بين سفن القتال فى الاسطولين الالمانى والانجليزى ، كما اقترح مستر تشرشل بدوره أن تقوم البحريتان « بأجازة » تتمكن الحكومتان خلالها من الاصلاح والتعمير بما ينفق جزافا على التسلح من ملايين الجنيهات .

وراح الناس فى انجلترا يشرفون على الاستعداد للاشتراك فى الالعاب الاوليمبية التى ستقام فى برلين سنة ١٩١٦ .

كان كل هذا يبعث على الرضا والسرور .

على أن سبير وحده ظل بمنجاة من تلك التيارات العنيفة المتدافعة . فهو رجل لايفكر كما يفكر الناس ، ولا ينظر الى الامور بعيونهم ، ولا يفسح من صدره مكانا لما يستثيرهم من مختلف العواطف والانفعالات .

لايستطيع سبير حمل نفسه على فكرة ما الى حد التعصب لها والجزم بخطا كل فكرة سواها ؛ بل هو رجل ينشد الحقيقة حيثما كانت ، ويحترم آراء غيره وان خالفت رأيه ، ولا يألو جهدا فى تبين ماتنطوى عليه من صواب .

وهو لهذا السبب لايرضى احدا قط . فان الناس لايحبون غير الرأى الصريح القاطع ، وما يحبون هذا النهج من مناهج التفكير الا لانهم يجدون اصحابه اسلس قيادا واسرع الى الاقتناع بآرائهم والتعصب لها من الباحث الذى ينشد الحقيقة دون سواها .

قال له توابنتج يوما وهو يخرج صحيفة من جيبه : ها هى وصية كوتس صاحب مصانع الخيوط . أحد باروناتك .

وعلم سبير ان توابنتج يريد الحملة على نظام الطبقات فقال : كلا .. انه من باروناتك أنت ؛ فقد اكتسب الرتبة اكتسابا ولم ينلها بحق الارث .

ــ اكتسبها ! لعلك تعنى انه ابتاعها بذهبه !. لقد ترك مليونا وثلاثة ارباع مليون من الجنيهات ! أى حق له فى ان يحوز هذا المبلغ ؟.

ــ لقد اكتسبه فيما اعتقد .

ــ اكتسبه ! انما اكتسبه موظفوه !.

ــ الم يدفع اليهم اجورهم ؟

ــ ماذا دفع لهم ؟ هل نمكن ان يخلف احدهم من بعده مليونا وثلاثة ارباع مليون ؟

كان صوت توابنتج يهتز حقدا وضغينة وعنفا ، وارتاع سبير مما يتمثل فى الرجل من العواطف الخسيسة البغيضة فقال : كم تكسب فى العام باتوابنتج ؟

ــ وما شان هذا بموضوعنا ؟ انما اتحدث عما يخلفه المرء لاسرته بعد وفاته .

ــ حسنا .. فلنفرض انك مت غدا وخلفت الفا او خمسة الاف من الجنيهات وان لديك لخادما يكد ويكدح كى يوفر لك من اسباب الراحة والهدوء مايمكنك من التفرغ للتفكير والعمل ، فهل تتوقع أن ينال هذا الخادم لروتك بعد موتك ؟.

قال توابنتج : ثمة فرق بعيد بين الحالتين .. انما اتكلم عن مليون وثلاثة ارباع مليون لا عن الف او خمسة آلاف !

ــ ليس ثمة من فرق الا فى الارقام ، ولو هبطت الآن الى الطريق لرايت كثيرا من المعدمين البائسين يحسدونك على ماتنعم به كما تحسد انت اصحاب الملايين .

وانثنى سبير الى مكتبه وهو يقول فى نفسه : ليس فى وسعى احتمال الصخب والهدم . وهؤلاء الناعبون فى المجالس والاندية ، وفوق المنابر وعلى صفحات الصحف ، لايحسنون غير الصخب والهدم ، لا قبل لهم بالتفكير الهادىء المتزن ، ولا قبل لهم بالتعمير والبناء .

الفصل الثانى

ولقد افضى هذا النحو من التفكير والنظر الى الاشياء الى المباعدة ما بين سبير وبين اقرب الناس اليه . ففورشون يصارحه بانه يجد فهم آرائه من اشق الامور ، وتوابنتج يقول ان العمل معه ليس بالامر اليسير ، وزوجته مابل تعلن اليه انها تضيق اشد الضيق بافكاره الشاذة وتصرفاته النابية .

وهكذا كان يجد نفسه غريبا فى بيته لايستطيع الاتفاق مع مابل بوجه ولا حيلة .

ولطالما حاول مصانعة مابل والتلطف بها ومجانبة كل مايمكن ان يهيج غضبها وسخطها ، ولكن الحديث يبدا بينهما لينا رقيقا ، وان هى الا ان يفوه بكلمة يحسبها بريئة لاتغضب احدا ، حتى تثور مابل ، وتشتعل » .

وهكذا الفى سبير نفسه يعيش بين ربعين «تاليين موحشين »

فهنا بيته .. وهناك مكتبه . وهو لايجد فيهما غير الوحشة والهم والانقباض .

واصبح لايجد لنفسه ملجأ يستجير به مما يكتنفه من الوحشة والعزلة غير غرفته يلوذ بها ويغلق عليه بابها ويسترسل فى خواطره وتأملاته كيف شاء دون أن يخشى اغضاب احد من الناس .. وغير تلك السهرات التى يقضيها عند آل فارجوس .. أو عند بيرش وامه العجوز .

على أنه كان ثمة ملجأ آخر يستهويه ويلح عليه الحاحا شديدا .. وهو يقسو على نفسه اشد القسوة فى حملها على الاعراض عنه وتنكب سبيله .

ذلك الملجأ هو .. تونا !

لم يكن يلقاها اكثر مما كان يفعل قبل قيامها برحلتها مع زوجها منذ سنتين .. وكما تقضى طبيعة التجاور فى غير اسراف ولا تزيد .

ولقد قال لها بعد ان افضت اليه بما تعانيه من الالم والشقاء بضعة ايام :

ـ ما ينبغى لنا ياتونا أن نلتقى الا اذا جمعت بيننا المصادفات .. فلست من القوة والعزم بحيث استطيع مجاهدة نفسى وكبح جماحها .

اجابت : بل انك اقوى اعظم القوة ياماركو .. وما احسب شيئا من الاشياء يستطيع أن يخرج بك عما تعتقد انه واجب مقدس عليك .

ـ انت فى هذا الراى مخطئة اشد الخطأ .. ولست من قوة الشخصية والثقة بالنفس بحيث تظنين . انما وهبنى الله حسا دقيقا اتبين به وجوه الخطأ والصواب فى كل مايعرض لى ، وما آخذ نفسى بالتزام ما اعتقد انه الصواب الا بعناء لايفوقه عناء ! وما اتحرى فى جميع أعمالى وجه الصواب الا لأننى اقبل الخطأ اذا فعلته عن بينة ، فلن اجد بعد ذلك سبيلا الى الفرار من وخز الضمير ، ولن اهتدى الى عذر تطمئن اليه نفسى وتقتنع به . اما اكثر الناس فانهم يرون كل ما يعملون صوابا ويأتون ما يأتون من الامر غير هيابين ولا وجلين ، وانى لاحسدهم على ما اوتوا من قوة الشخصية والاعتداد بالنفس ، بقدر ما احتقر ما ابتليت به من ضعف الشخصية وصغر الهمة ..

فقالت : ليت لى مثل ضعفك وصغر همتك !

***

احمل سبير فى هذه الكلمات وصف نفسه وحقيقة خلقه .. ولكن هذا الخلق نفسه ـ احساسه الدقيق بالخطأ والصواب وما ينبغى له ان يفعل وما لا ينبغى قد حال دون ان يظهر تونا على ما تكلفه التزام طريق الواجب من مشقة وعناء ، ومن الم وعذاب .

ولقد كان فى وسعه حقا ان يمنع نفسه من لقائها الا حين تجمع بينهما المصادفات الرحيمة ، ولكن هيهات له ان يستطيع منع نفسه من التفكير فيها ، ولكنه مع ذلك لا يكف قط عن مكافحة عواطفه ومدافعتها ، وهو يعتقد انه فى هذا النضال الرهيب لا يرد نفسه عن مسلك الضلال والغواية فحسب ! .. وانما يرد عن تونا كذلك غوائل الالم والعار ..

وقال لها ذات يوم :

ـ ان الحياة يا تونا تدفع المرء فى طريقه دفعا ، فاذا ما خطا الى الامام خطوة واحدة لم يستطع النكوص على اعقابه قط ، ولم يملك رد ما وقع من القول أو العمل . وقد يكلفك ذلك القول أو العمل دقيقة أو جزءا من الدقيقة ، ولكنك متى اقدمت عليه ظل طوال حياتك من الوقائع الثابتة لا سبيل الى محوها ، وان هذا لرهيب هائل ..

وفى الحياة يا تونا خطأ وصواب ، فليست ثمة منزلة وسطى بين الخطأ والصواب ، وليس ثمة من سبيل الى الجمع بينهما فى صعيد واحد ، فاما ان تكونى فى جانب الخطأ ، واما ان تكونى فى جانب الصواب ، واذا ما سرنا فى طريق الخطأ خطوة واحدة لزمتنا آثارها طوال العمر ، واضطررنا الى مقارفة ما يتبع الخطأ من خداع ونفاق وكذب ومين ورياء وما الى هذه الصفات الجهنمية اللعينة ..

وليس من وراء هذه المنكرات كلها غير العار وضياع الشرف ، وهيهات أن يستطيع المرء الاستعاضة عن الشرف بشىء اذا اضاعه .

ثم هتف فى صوت مرتفع :

ـ ما استطيع ان اسمو بك اذا استجبنا لنداء العاطفة الثائرة والنزوة الجامحة ، بل لسوف اهوى بك الى الحضيض ! .

قالت : بل انك لتسمو بى يا ماركو ! .

واذكت رقتها ووداعتها بين جوانحه نيران الصبابة والوجد ، وشعر برغبة عنيفة ملحة فى هدم ما اقامه من حواجز الواجب والخلق بينه وبينها ، وضمها الى صدره الواله وشفى غلته بالثمات

والقبلات ، ولكنه استنصر بكل ما أوتى من القوة والعزم .. وقال في صوت غليظ تكاد تخنقه عواطفه الثائرة الحبيسة

ـ اذا ضقت ذرعا بنا تلقين ولم يعد في وسعك الاحتمال فالبثيني ..

الفصـــل الثـالث

في اواخر شهر يوليو سنة ١٩١٤ تعقدت المشكلة الايرلندية اشد التعقد ، وشغلت انباؤها صدور الصحف الانجليزية ، واستثرت اهتمام جميع القراء ..

وكانت الأزمة السياسية التي نشأت عن مقتل ولى عهد النمسا في سراجيفو تتراءى خلال تلك الانباء بين الفينة والفينة دون ان يعيرها القراء اهتماما ..

وابتاع سيبر في صباح احد الأيام طائفة من الصحف وهو في طريقه الى مكتبه ، معتزما قراءتها بمجرد وصوله ليقف على تطورات المسألة الايرلندية . والقاها على احد المقاعد ريثما يعلق قبعته على المشجب ، بيد انه كان مقدرا ان تظل في مكانها حتى ترفعها المرأة التي تقوم بتنظيف الغرفة في المساء ، اذ رأى سيبر على مكتبه رسالة تبين على غلافها خط تونا الانيق ..

وراح يقلب الرسالة بين يديه ويطيل اليها النظر .. كانت تحمل بريد لندن ..

وظهر القس فورشون بالباب الذي يصل بين غرفتيهما فوضع سيبر الرسالة في جيبه والتفت نحوه ..

ودخل فورشون ومعه شاب يذكر سيبر انه رآه قبل ذلك ، ومن خلفهما توابنتج ..

وقال فورشون :

ـ سيبر .. طاب صباحك يا سيبر .. لقد زاد عددنا هذا الصباح واحدا ، وجئت اقدم لك عضوا جديدا في هيئتنا ..

وأردف وهو يشير الى الشاب :

ـ عضو جديد .. ولكنه يحمل اسما قديما .. انه فرع من دوحة قديمة .. دوحة توابنتج ..

وابتسم وهو يربت على بطنه الضخم الذي يشبه بطن الحوت كأنه يهنئه على هذه النكتة البارعة ، وابتسم الشاب ، وخطا توابنتج الى الامام وهو يبتسم كذلك ..

على أن تلك الابتسامات كلها كانت تشف عن القلق والاضطراب

وهو أمر لا يستغرب من الشاب لحداثة عهده بالشركة ... اما اضطراب فورشون وتوابنتج فله دلالته ومعناه ..

ولقد احس سيبر من أول الامر أن في الحاق الشاب بالشركة دون علمه امرا يستوجب الريب ، ولكن اضطراب الرجلين ادعى الى الشك والريب لأنه يدل على انهما تعمدا كتمان الأمر عنه لغاية يضمرانها ..

ومد يده الى الشاب قائلا :

ـ هذا حسن جدا .. اظن انني رأيتك قبل ذلك مع ابيك .. لقد كنت بمكتب بيلد وبارسون المحاميين .. أليس كذلك ؟

اومأ الشاب بالايجاب .. وكان ذهبي الشعر ، أشقر البشرة ، وسيم الوجه .. وقال فورشون وهو لا يزال يربت على بطنه الضخم :

ـ اجل .. لقد انتزعه توابنتج من المحاماة وهو عمل يستوجب شكري ويدل كذلك على اخلاصه لعمله او وظيفته الجديدة ، فقد غدا شريكا ..

وكأنما اراد ان يخفى اضطرابه فتحول من بصر سيبر الى رفوف الكتب وقال :

ـ انني اجد لون تجليد السلسلة الجديدة كل التجديد .. وماذا كنت اقول ؟ . آه .. اجل .. لقد غدا توابنتج شريكا يا سيبر ..

ثم انثنى عن الكتب واتجه نحو غرفته قائلا :

ـ هو شيء من التنظيم لا اكثر ولا اقل .. ويقيني انه سيزيد من قدرتنا جميعا على القيام بأعمالنا ..

ووقف أمام الشاب وقال :

ـ لقد قدمت تحياتك الى مستشارنا الادبي ايها الشاب .. اظن اننا اتفقنا أن ندعوه هارولد يا توابنتج ؟ . هذا يكفل عدم الخلط بين توابنتج الكبير وتوابنتج الصغير ..

ثم غادر الغرفة ..

وتكلم توابنتج لأول مرة منذ دخل .. فقال :

ـ لقد انجز وعده اخيرا يا صديقي ..

فأجاب سيبر :

ـ انه وعدك بهذا منذ زمن طويل ، وقد احسن اذ وفى بوعده ،

ـ ولكن هذا لن يغير شيئا مما بيني وبينك ، وأرجو أن اتمكن من مؤازرتك في كثير من الشئون . ولقد كنت أصف الآن

لهارولد ورقتك وحسن شمائلك .. اليس كذلك يا هارولد ؟ .

فأوما الشاب بالايجاب . وقال سبير : اظن هارولد سيشتغل بغرفتك ؟

أجاب : نعم . وهم يضعون الآن مكتبا له هناك

وسار توالينج وولده نحو الباب ، ولكنه لم يلبث ان التفت الى سبير قائلا : بهذه المناسبة أريد منك أن تطلع هارولد على هذه الناحية من الاعمال فيما بعد .

فحدجه سبير قائلا : تريد منى ؟

وعلا وجه توالينج شيء من الاحمرار وقال : يجمل به ان يلم بجميع نواحى العمل ، وهذا هو ما اعنيه .

ـ لا ريب فى ذلك ولك أن ترسله الى عندما تشاء .

ـ اشكرك جزيل الشكر يا صديقى .

على انه ما كاد يخرج من الباب حتى غمغم قائلا : لقد ظننت انى اصدر اليك أمرا فغضبت يا مولاى لانك لا تحب الاوامر . ولكنك عما قريب لن تظن فحسب ، وانما ستعلم به علم اليقين !

ظل سبير فى وقفته امام مكتبه يدير فى يده كرة صغيرة من الورق ، وهذه العبارة ماثلة فى خاطره : لقد قوضت خيامك واوشكت على الرحيل .

وقال فى نفسه : كان هذا منتظرا منذ زمن بعيد ، ولن تشغل الكتب بعد اليوم الا مكانا ثانويا عن اعمال الشركة .. ان توالينج يحسدنى ، وفوروشون ينفس على ما اصبت فى نشرها من النجاح والتوفيق .

ولولا انهما يبيتان لى كيدا لما فاجآنى بهذا الامر مفاجأة ، ولاطلعانى على عزمهما قبل تنفيذه . انها فاتحة لا تبشر بخير ا ولها ما بعدها دون ريب .

وليس لى صديق اركن اليه ، واستعين به .

الا ما اشد ما يكتنفنى من الوحشة هنا ، وما اشد ما يكتنفنى من الوحشة فى بيتى ! وما ارى سبيلا الى الفرار من هذه الوحشة المضنية والهم المقيم ..

وهنا ذكر رسالة نونا فاخرجها من جيبه وفض غلافها وقرأ فيها : « ماركو .. خذنى اليك ـ نونا »

وشعر بفؤاده يكاد يطفر من بين جنبيه ويطير اليها ، ومر بخاطره ما قاله لها : اذا ضقت ذرعا بما تلقين ولم يعد فى وسعك الاحتمال فاتبعينى ..

* * *

أخذ يكتب اليها بانه قادم الى لندن فى الغد فعليها ان تستقبله

بالمحطة اذا استطاعت ، والا فلتتصل به تليفونيا بفندق « جرينت وسترن اوتيل » للاتفاق على اللقاء والبحث فيما ينبغى عمله . وانه ليود الرحيل معها بمجرد اللقاء الى مكان بعيد يطولان فيه الى بعضهما ويقطعان كل صلة لهما بما يثقلهما من الهم الناصب والشقاء المبرح ، ولكن ثمة امورا يجب الفراغ منها قبل ذلك .

وكتب : « ولكن لا يسعنى الآن ان ارحل معك » .

وهنا عصاه قلمه ، وراح يردد هذه الكلمات وقد تجلت له معانيها المريعة وتكشفت له عواقبها الوخيمة ، وارتسمت فى ذهنه هذه العبارة بارزة واضحة لا تبرح خاطره ولا يملك عنها منصرفا :

« ولكنى لا استطيع الا الانحدار بى الى قرارة الهاوية . ليس فى وسعى ان اسمو بك قط . »

انقضى الصباح ثم الظهر ثم الاصيل وهو لا يزال جالسا الى مكتبه ، يجاهد تلك العبارة ويحاول اقصاءها من خاطره واتمام رسالته دون طائل . واخيرا مد يده وتناول الرسالة فمزقها ، وراح يكتب من جديد بيد مضطربة ، وبعد نصف ساعة تنسق سطور آخر ورقة من الرسالة الجديدة وكان فيها :

« ... وهكذا فان ما ارمى اليه هو ان تصغر هذه الخطوة اذا اقدمنا عليها عنى لا عنك ، حتى لا تبوئى ، بعارها ، وتحملى كل وزرها . ستنسى تماما انك كتبت الى ، وستغفل امر الرسالة التى تلقيتها منك اليوم ولعدها كان لم تكن . وساكتب لك يوم الثلاثاء (هل احضر اليك ؟) فاذا جاء ردك بالايجاب بادرت الى لقائك ولتحملت دونك عواقب تلك الخطوة . بيد انه يجب ان تفكرى وتطيلى التفكير قبل حلول ذلك اليوم . ان الشرف لا ينتهى عند غاية بالنونا ، كالحق سواء بسواء . واذا كان فى وسع العالم تجزئة كل شيء فى الوجود ، فما الى تجزئة الحق والشرف من سبيل . فالحق هو الحق ، والشرف هو الشرف . والزواج عهد شرف كغيره من عهود الشرف فاذا نكث به المرء فقد تحلل من قيود الشرف ولم يعد خليقا بشيء من الاحترام ، هذه اعتبارات ازجيها اليك سلفا لتفكرى فيها ما وسعك التفكير قبل حلول يوم الثلاثاء » .

ثم تناول القلم وكتب بيد ثابتة « وسيكون جوابك عندما اسالك اياه بمثابة الضوء الذى يبدد ما يتراكم حولى من الظلمات الداجية المدلهمة : مارك »

وترامت الى سمعه حركة الموظفين وهم يغادرون مكاتبهم اذ حل موعد الانصراف ، فاعتلى دراجته وسار الى صندوق البريد ، وما كاد يلقى بالرسالة فيه حتى مد اليه بائع الصحف صحيفة القاطعة وقد كتب في صدرها بحروف ضخمة :

« النمسا تعلن الحرب على الصرب »

ولكنه هز راسه واعرض عن البائع . ما الذى يعنيه من النمسا والصرب !

ظلمة دامسة تلك التي كان يعيش فى غمارها سيبر خلال الايام الباقية على موعده للكتابة الى تونا .. فلقد اعرض عن امر كانت نفسه تنزع اليه وترغب فيه أشد الرغبة ، وهو يجد اشد العذاب فى هذا الاعراض ، كما يجد اشد العذاب كذلك فى تجاهل مايضطرم بصدره من لواعج الوجد والجوى .

وسيكفل ودها حين يكتب اليها براحته من هذا الالم المضنى .. فانها اذا آثرت الشرف على الحب فقد امدته بقوة يستعين بها على ضعفه .. اما اذا اختارت تلبية داعى الصبابة والنزول على حكم الهوى .. فما اشد ما يرغب فى تحطيم هذه القيود التى صفد بها نفسه دهرا طويلا دون ان ينتفع بهـا أحد ممن ارتضاها فى سبيلهم . او تعود عليه بغير اليأس والشقاء .

وما كان فى غمار ذلك الظلام ليستطيع الاهتمام كثيرا بالانباء الدولية التى طفقت الصحف تنشرها تحت عناوين ضخمة مثيرة مسرفة فى التشاؤم .

وحاول سيبر ان يمر بتلك الانباء فى استخفاف وازدراء ، وحاول كثير من النـاس غيره ان يمروا بها كذلك فى استخفاف وازدراء .

غير ان تلك الازمات التى اسهبت الصحف فى الحديث عنهـا .. وبالغت فى تصوير أخطارها واهوالها . لم تلبث ان انقشعت كما تنقشع سحائب الصيف .

ولكن تلك القدر التى كانت تغلى وتفور وهى تسترعى اهتمام فريق من الناس ، وتقلق فريقا آخر قلقا هينا رقيقا ، ويمر بهـا فريق ثالث غير آبه ولا مكترث ، لم تلبث ان فارت فجاة وسقط ما فيها من الشحم على النيران فاندلعت السنتها ، وامتد لهبها الى كل شأن من شئون الناس جميعا .

ففى يوم الجمعة أقفلت بورصة العقود ابوابها ، وفى يوم السبت اعلنت المانيا الحرب على الروسيا ، وفى صحف يوم الاحـد قرا

سيبر ما ساد المصارف من الذعر والاضطراب ، وازدحام النـاس على أبوابها لاسترداد ودائعهم ، فتوقف احد مصارف لنـدن عن الدفع ، ولم تنج بقية المصارف من الكارثة الا بحلول موعد اغلاق أبوابها قبل وقوع الكارثة بدقائق معدودات .. كذلك كان الناس يحاصرون الحوانيت للحصول على ما يدخرونه من الاطعمة .

وقام تضال فى ذهن سيبر بين ما يشغله من امر تونا ومكافحته بين الشرف والحب ، وبين هذه الاحداث التى لا تفتأ تترى ما بين لحظة وأخرى . وراح يراقب تلك الاحداث كانه يراقب ربعـا شبت فيه النيران فلم تبق منه غير سقف مهشم لا يلبث ان يخر على الارض . فلقد تحرجت الامور أشد التحرج ، وبات لزاما على بريطانيا أن تخوض غمار الحرب تلبية لداعى الشرف . بيد ان سيبر كان يشعر أن هذا لا يحدث ، ولا يمكن ان يحدث .

بيد أن ما ظنه لا يحدث قط حدث فعلا ، وفى يوم الثلاثاء ؛ موعد رسالته الى تونا — نطق بالكلمة الرهيبة على انها حقيقة واقعة وقد كان حين يفكر فيها قبل ذلك لا يراها الا وهما من الاوهام ؛ الحرب !.

نشرت الصحف فى صباح الثلاثاء بيان السير ادوارد غراى رئيس وزراء انجلترا فى مجلس العموم من اعلان التعبئة وعزم انجلترا على الوقوف بجانب فرنسا اذا جاء الاسطول الالمانى الى القتال ، وعن تعهدات انجلترا لبلجيكا .

وكان من شأن تلك الانباء ان وقف سيبر ساعتين كاملتين بين الجماهير المحتشدة امام ادارة صحيفة القاطعة فى المساء فى انتظار البيان الذى وعد رئيس الوزراء بالقائه بعد الظهر .

ولم يلبث القوم أن حبسوا اصواتهم اذ بدا بالشرفة بابك مدير الصحيفة وقد خلع سترته . وشمر اكمام قميصه ، وتهدل شعره الطويل المشعث فوق جبينه ، ثم رفع ساعديه وبسط علما بريطانيا واخذ يلوح به فى الهواء ، فتعالى هتاف الجماهير واندفعوا ينشدون حفظ الله الملك !

وشق سيبر طريقه بين الجماهير المتراصة وهو لا يفتأ يغمغم ؛ « الحرب الحرب .. » ثم اسرع الى الشركة فلم يجد بها أحدا ؛ واعتلى دراجته وانطلق نحو بيته بسرعة جنونيـة وهـو يغمغم ؛ الحرب .. الحرب .

وهنا خطر أوتوى بباله ..

لقد تنبأ بهذا منذ شهور .. وكان على حق .. فها هى نبوءته قد تحققت ..

الحرب ..

بلغ سيبر بيته وهو لا يزال يمضغ كلمة « الحرب » . ولكنه يريد ان يرفع بها صوته ، ويتحدث عنها الى احد من الناس .

كان يريد ان يفضي بها الى مابل ، فقد تملكته بغتة رغبة عتيقة مسرفة فى التحدث اليها عن هذا الحدث الخطير ، وخالجه ميل قوى الى احاطتها بالرفق والرعاية فى هذا الزمن العصيب .

واندفع الى المنزل فلم يجد مابل بقاعة الجلوس . واعتلى السلم ركضا الى غرفتها فالفاها واقفة امام منضدة الزينة . والتفت نحوه مدهوشة متسائلة ..

فصاح : الحرب !

فرددت الكلمة : الحرب ؟

ـ نعم ، الحرب . لقد اعلنا الحرب .

ـ اعلنا الحرب ؟

ـ نعم ، اعلنا الحرب . ارسلنا الى المانيا بلاغا نهائيا ينتهى الليلة ، ومعناه الحرب بلا ريب .

وكان يلهث منفعلا فقالت : رباه ! ما عسى ان يحدث ؟ هل جئت باحدى صحف المساء ؟ و ..

لم يستطع الاستماع الى بقية قولها فابتدرها قائلا :

ـ كلا .. لم انتظر حتى ابتاع صحيفة ، وانما هرعت الى هنا من فورى .

وكان قريبا منها فاخذ يدها وراح يضغط عليها فى رفق وحنان وقد ازدحمت فى صدره العواطف ، واراد أن يضمها الى صدره ويقبلها .

وضحكت مابل ضحكتها المفاجئة المرتفعة وقالت : انك شديد الانفعال ، وما رأيتك عمرى فى مثل هذه الحالة ، وقد اختل نظام ياقتك .

وافلت سيبر يدها وهو يقول فى بلادة وجمود :

ـ حسنا .. انها الحرب كما تعلمين .

وتحولت نحو منضدة الزينة قائلة : كنت أود لو انتظرت حتى تحضر احدى الصحف ، فلابد لنا الآن من الانتظار حتى الصباح لقراءة الانباء .. والله وحده يعلم متى يتفضل البائع بارسال الصحف .

الحرب ! ما ظننت انها تقع قط ، فماذا يكون أول احداثها ؟

أن وصول الصحف متاخرة ليسبب كثيرا من المضايقة ، واذا لم تصل حتى موعد ذهابك فى الصباح ، فلك ان تطلب الى البائع

الكف عن ارسالها . انه من ذلك الصنف من الباعة الذين يظنون ان لهم ان يتصرفوا كيف يشاءون .

الحرب مع المانيا ! لا أكاد أصدق بوقوعها !

ولكن الا تنوى التحرك ؟

وذهب الى غرفته ، ثم عاد الى مابل . كان لابد له من مناجاة احد من الناس بما يعتلج فى خاطره ، ولكنها لا تعنى ولا تكترث !

وقال لها : لا تنتظرينى للعشاء . انى ذاهب الى فارجوس لابنه .

وعرج فى طريقه على المقهى هاتفا : لقد وقعت الحرب !

فصاحت جنكنز المبسطة : لقد قضى الامر اذن !

قال : اجل . أرسلنا بلاغا الى المانيا ، وسينتهى الليلة !

ـ ينتهى الليلة ! انها اقصر حرب سمعت بها !

ـ انما ينتهى البلاغ لا القتال ايتها الحمقاء !

وهرول نحو بيت آل فارجوس فالفى الباب مفتوحا والتقى بكبرى بنات مستر فارجوس فى الردهة فصاح : هالو مس فارجوس هل ابوك هنا ؟ لقد اعلنا الحرب .

فرفعت كبرى بنات فارجوس رأسها وصاحت بمس فارجوس اخرى فوق السلم : بابا ! الحرب !

وتلقفت مس فارجوس ثالثة هذا النداء : بابا ! الحرب !

وما لبث البيت كله أن تجاوبت جنباته بهتافهن جميعا : بابا الحرب بابا الحرب !

ثم قالت كبرى بنات فارجوس : هذا لا يدهشنى قط ، فقد كنا نتناقش فى احتمال وقوع الحرب اثناء الافطار هذا الصباح . وبرغم معارضة شقيقاتى لى فاننى كنت ارى الحرب واقعة لا محالة .

وهنا هبط مستر فارجوس السلم مسرعا وقبض على يد سيبر بشدة وهو يصيح متأثرا : احقا وقعت الحرب ؟ شكرا لله ! طالما دعوت الله أن يسدد خطى وزرائنا فى اجتماعهم امس الى انتهاج هذه الخطة ! كنت اخشى يا سيبر ان ننكص على اعقابنا ، ولكنى احمد الله فان انجلترا لا تزال هى انجلترا !

ثم اخرج الشيخ منديله ومسح ما ترقرق فى مآقيه من الدمع وهو يقول : لقد دعوت الله كثيرا ان يحضر اجتماع الوزارة امس فى داوننج ستريت ..

وارتاعت حرقة الفتيات من فكرة حضور الله اجتماع الوزارة فانطلقن يهتفن : بابا .. صه ! بابا .. صه ! بابا .. صه !

ولكن سيبر قد ارضاه ما شهد ، وسكن جاشه عندما القى نفسه بين قوم يشعرون كما يشعر ، ويفكرون كما يفكر ، ولا يستقبلون اخطر الاحداث فى فتور وجمود ..

* * *

قضى سيبر ليله مسهدا يفكر فى لونا ؛ لقد مضى اليوم الموعود دون ان يكتب اليها ، ولكنها ستقدر عذره بلا ريب ، وهى دائما مرهفة الحس ، حية الوجدان ، متيقظة الضمير .

لقد انقلب العالم راسا على عقب ، وما يشك ان لونا قد تأثرت كما تأثر ونالها من الانفعال مثل ما ناله ، وشد ما يتمنى لو كانت امامه يبثها نجواه ، ويتخفف مما يثقله من الخواطر بالافضاء بها اليها .

شعر انه كان يجود باعز شىء لديه لو قد وجدها امامه عندما هتف : « يا الهى .. الحرب ! » ولو اتيح له حينذاك ان يقبض على يديها وينظر فى عينيها .

ولسوف يكتب اليها فى الغد . ولكن من يدرى ؟ ان الحاضر ليبدو لنا فى بعض الاحيان مسرفا فى القسوة فننظر الى الغد فى تشوق ولهفة ، وقد يكون الغد عندما يأتى اشد قسوة وعنفا ، وقد يحملنا على الاسف على ذلك اليوم الذى بكينا منه !

وتراءى فى مزدحم هذه الخواطر وجه صديقه ادنوى وهو يتحدث اليه عند « بورصة الغلال » عن وشك وقوع الحرب فى ثورة وانفعال .

وهكذا قضى ليله وهو نهب اشتى الخواطر والذكريات .

* * *

ذهب الى تيدبورو فى صبيحة اليوم التالى فرأى ان اليوم شر من سابقه اذ اعلنت الحرب فعلا وتقطعت اسباب الامل والرجاء على ما كان من ضعفها ووهنها .

والحق ان بائع الصحف لم يرسل الجرائد الى منزله حتى غادره ، وغضبت مابل لذلك اشد الغضب . بيد انها كانت باعمال الرجل اشد اهتماما منها بما قد تحمله صحفه من خطير الانباء .

ورأى الناس يتجمهرون فى الطرقات حاملين الصحف وهم يتحادثون فى جد واهتمام ، فلما دنا من حانوت بائع الصحف رأى بطاقات كتبت عليها خلاصة الانباء بحروف كبيرة ، وهى على اختلاف تعبيراتها تتضمن اعلان الحرب .

لقد اعلنت الحرب ، وما كان الامس حلما من الاحلام .

ونزل سيبر عن دراجته وتركها تسقط على الرصيف فى عنف ، واسرع الى بائع الصحف فابتاع جميع صحف الصباح ، وبعد ان نظر فيها خرج يقصد مكتبه .

ورأى الناس مزدحمين على باب احد المصارف ينتظرون فتح ابوابه لاسترداد ودائعهم . وكان لويد جورج قد اصدر امرا باغلاق المصارف ثلاثة ايام ولكنهم كانوا لا يصدقون .

ومر بمتجر بقال كبير فرأى الناس كذلك يسدون ابوابه ويتزاحمون بالمناكب للحصول على اكبر ما يستطيعون من الكميات ، كما رأى سيدة تخرج حاملة ثلاث صفائح من الفاكهة المحفوظة وعلبة مربة وكيس دقيق ، وهى تقول فى لهجة الظافر : لقد حصلت على بغيتى !

وبعث اطمئنان المرأة الى ادخار هذا القدر التافه بالثقة فى نفس سيبر فقال ان الناس جميعا موقنون بقصر امد هذه الحرب .

وصل سيبر الى الشركة فالفى موظفيها جميعا قد انصرفوا عن العمل الى التحدث فى الحرب ولا شىء غير الحرب .

ودخل غرفة فورشون فوجد معه توابنتج وولده ، وهم عاكفون على خريطة انتزعوها من احدى الصحف ، وراحوا يدرسونها ويتحدثون عما ينتظر من الوقائع والنتائج .

واستقبلوا سيبر بالحفاوة والترحاب فقد انست الكارثة الناس ما يعتلج فى صدورهم من الاحن والبغضاء وافاضت عليهم من الالفة والمودة ما لا يعرفونه الا اذا استحكمت حولهم حلقات البؤس والشقاء ، واذهلهم عن احقادهم الجزع والرعب .

وقال فورشون : لو سلمنا جدلا يا توابنتج بان فى وسع المانيا حشد الجيوش الجرارة التى تصفها فى ميدان القتال ، فلن تغنى عنها هذه الجحافل شيئا ، اذ اكد لى احد المراسلين العسكريين ان مثل هذا الجيش اللجب تضيق به ساحة القتال فلا يستطيع التحرك ، ويسهل على قوة اقل منه كثيرا ان تقهره وتفوز عليه .

فقال هارولد : ولا تنس تلك الحصون الهائلة يا سيدى

ـ اجل .. اجل . ثمة لياج ونامور وانتورب ، وهى فى رأى جميع المراسلين العسكريين امنع من عقاب الجو . ما اظن هذه الحرب تدوم شهرا كاملا ، فما رأيك يا سيبر ؟

وكان سيبر قد سكن جاشه كثيرا وشعر ان شدة المفاجأة قد حملته على المبالغة فى تقدير الكارثة .. واجاب : لست ارى فى الحق كيف يمكن ان يطول امدها .. وقد كنت افكر الان فى هولها لو طالت وحدثت الموقعة الفاصلة فى يونيو سنة ١٩١٥ .

وضحكوا جميعا لهذا الخاطر الغريب .. وضحك معهم سبير .. وقال توابنتج ـ بونيو سنة ١٩١٥ !.. اعجب هذا الظن ! انها لن تدوم الى ما بعد عيد الميلاد على الاكثر !.

***

على ان سبير عندما عاد الى غرفته وقرا الصحف .وما فاضت به اعمدتها من انباء الاجراءات التي اتخذتها الحكومة .. والاوامر الصادرة الى احتياطي الجيش والبحرية .. ولنداءات التطوع للرجال .. والمشاهد التي تحفل بها شوارع لندن . وما يتجلى في افتتاحيات الصحف من الجد والاهتمام وما جاء بها من الاحصاءات وتكهنات المراسلين الحربيين .. وما وصل فعلا من انباء ساحات القتال .. ما قرا سبير كل ذلك حتى غاض معين التفاؤل والامل . وعاوده الهم والانقباض . وعلم ان انجلترا تواجه زمنا عصيبا حقا .

وهنا خطرت له تلك العبارة التي افتتح بها كتابه : انجلترا هذه ملكك .

انجلترا ! . انها الآن تخوض حربا دامية رهيبة .. وتواجه عدوا لدودا تتحداها وتريد دمارها .

وشعر ان لابد له من الخروج الى الشارع ليرى ماذا يحدث في الخارج وهناك تردد في خجل واستحياء أمام القيام بعمل تنزع اليه نفسه .. بيد انه تغلب على حيائه .. وولج عيادة طبيب مشهور .

وعندما غادر العيادة التقى بزوجته مابل . وكانت قد جاءت تحاسب بائع الصحف على اهماله ، فراحت تقص عليه ما حدث بينها وبين البائع ، وختمت قصتها قائلة : انه لرجل وقح !

ثم سالته : اكنت بعيادة الدكتور اندرسون ؟

ـ نعم .

ـ وما الذي حملك على مقابلته ؟

فتردد سبير قليلا اذ لم تكن يحسن انتحال الاعذار وتلفيق الاكاذيب ثم قال متعثرا : لا شيء .

قالت : محال ان تكون قد قابلته لغير سبب .

اجاب : ليس بالامر الهام ، ولعلك تذكرين انه عندما امنت على حياتي زعم طبيب الشركة ان بقلبي ضعفا . فرايت ان اعرض نفسي على الدكتور اندرسون لاعرف هل زال ذلك الضعف فاتمكن من تخفيض رسوم التامين المرتفعة .

ـ ياله من سبب تافه . وماذا قال لك ؟

ـ قال ان بقلبي لغطا او شيئا من هذا القبيل . اذا كنت عائدة الآن الى المنزل فلا تنتظريني للعشاء . سأتناول الطعام هنا لان صحيفة « ابفنج نيمس » ستصدر طبعة خاصة في الساعة التاسعة واريد انتظارها .

قالت موافقة : حسنا احضر الصحيفة معك .

وعاد الى مكتبه فوجد عليه بريد بعد الظهر . واخذ يقلب الرسائل في تراخ وفتور . فاذا به يجد رسالة من نونا . وفضها فقرا فيها :

« يا لك من هذه الحرب يا ماركو ! لقد جنوت لله شكرا اذ حلت انت بيني وبين الانسراح من قيود الزوجية في الاسبوع الماضي ، وما كنت لاطيق وخز الضمير لو ركبت تلك الخطة ثم نشبت هذه الحرب . لقد التحق بوني بالحرس اذ انه من الضباط الاحتياطيين ، وبرغم ما اساء الى فانه زوجي ، ومن الواجب ان اقف الى جانبه واشد ازره في هذا الظرف العصيب . واني لاكرر لك الشكر يا ماركو اذ وفرت على عذاب التخلف عن اداء هذا الواجب ..

« نونا »

الفصل الخامس

انقلب العالم الفسيح راسا على عقب ، وشملته عاصفة جائحة من الرعب والهول تجاوزت كل مدى ، حتى ليخيل الى الناس انها صورة هائلة من خيالات الاحلام . لا حقيقة واقعة من حقائق عالم الحس والمشاهدة . وغدت الحياة التي تحسب فيما مضى بالايام والساعات ، سلسلة متصلة الحلقات من الخطوب والاحداث .

ومر سبير ذات يوم عقب اعلان الحرب بثكنات فرقة المقاطعة وهو في طريقه الى بيته ، فاخذه كوتار احد الضباط الى مقصف المعسكر قائلا : يجب ان تتناول معنا قدحا من الشاي ، فليس لنا بعد الليلة ملتقى ..

وجاشت في نفس سبير العواطف والانفعالات فساله : هل الفرقة راحلة الى ميدان القتال ؟

وفتح كوتار باب المقصف ، وقد غص بالضباط وانعقدت في سمائه سحب الدخان ، وعلت في جنباته الضجة واللجب

وكان ضابط مديد القامة يدعى سايكس واقفا على احدى الموائد وفي يده كاس فصاح : هالو سبير ! ايها الساقي .. كاسا من هذا الويسكي القوي لسبير قائنا ..

واندفع يغني : لاننا لن نكون هنا في الصباح .

ورفع كل من في المقصف عقائرهم معه : لن نكون هنا في الصباح، قبل انبلاج الفجر !

وهنا اقبل اوتوى صائحا : كفوا عن هذا اللغط ايها الحمقى ! ما هذا .

وهتف سابكس : ها هو بابا اوتوى ! حيوا بابا اوتوى في همس منخفض ايها الرفاق ! ايها الساقى . كاسا من هذا الويسكى القوى للكابتن اوتوى !

فضحك اوتوى مسرورا وقال : كلا .. لا اريد شيئا من الشراب فانى في حاجة اليك يا هود ، وانت يا كارميكل ، وانت يا بولن .

ثم راى سبير فهتف : هالو سبير : انك تعلم الآن بعزمنا على الرحيل ، وكنا نريد ان يظل هذا الخبر طى الخفاء ولكنه ذاع في جميع انحاء المعسكر اجل .. اننا راحلون غدا .

وازداد بسبير التأثر حتى كاد يحتبس لسانه ، وقال : يا لله ! لا اكاد اصدق ان الحرب وقعت حقيقة . هل تذكر يا اوتوى انك تنبأت بذلك منذ سنتين تقريبا ؟! لقد ظننت ان الامر سيأخذنا على غرة ، وكنت من الذين يهزأ الناس بآرائهم ..

قال اوتوى في جده المعهود : ما احفل يا سبير بما حدث في الماضى ، وعلينا الآن ان نظهر شجاعتنا واقدامنا ، واننا لفاعلون دون ريب ، كان ينبغى ان تشهد عرض الفرقة في هذا الصباح يا سبير ! انها لجليلة رائعة ، وليس في الجيش كله فرقة تدانيها !

وهنا دخل احد الجنود واسر اليه امرا فقال : سأحضر في الحال انى في حاجة اليك ايضا يا باترسون فان رجلا من فصيلتك يقول ان زوجته ...

وتلقف احد الرجال كلمته الاخيرة فصاغ منها نشيدا رفع به عقيرته ومعه الموجودون جميعا : ان لى زوجة وستة عشر طفلا .

ثم طفق سابكس يتلو عليهم التعليمات الخاصة بما يأخذونه معهم من الادوات ، وقال عندما انتهى من ذلك : ولكنى لن آخذ معى غير الجوارب سأحشو حقيبتى بالجوارب ، وليس بنا من حاجة الى سواها في ساحة القتال . سآخذ معى ما يكفينى لمدة .

على ان سبير علم بعد رحيل الفرقة بقليل أن المسكين قتل قبل أن يبدل الجورب الذى وصل به الى ميدان القتال !

***

ثار سبير اشد التأثر بما شهد من حماسة أولئك الشبان وبسالتهم ، وظل طوال تلك الليلة مسهدا وهذه الصورة ماثلة في

خاطره . وكيف تمضى عيناه وهؤلاء الشبان البواسل يسيرون لمواجهة الردى ؟

لم يستطع النوم ، فانسل من المنزل في الساعة الثانية صباحا ، وركب دراجته وانطلق الى تيدبورو .

وصل قبيل تحرك الفرقة تماما ، ولم يجد في الطريق غير افراد قلائل جلهم من النساء اذ بالغوا في تكتم نبأ الرحيل .

ــ ها هم قد اقبلوا !

ــ نطقت بهذه الكلمات فتاة تعتمد على ساعدها عجوز فانية على كثب من سبير ، فكادت انفاسه تحتبس تأثرا . وازداد انفعاله عندما بدت طليعة الجنود وهم ينشدون نشيدا محزنا على انغام الموسيقى .

لم يكن له عهد طوال حياته بما عراه الآن من الاسى والشجن ، ولم يدر في خلده قبل ذلك ان في الوجود مثل هذه الموسيقى المشجية المروعة ، فاحس بحلقه يكاد ينفجر بما يعترضه من الغصص .. واغرورقت عيناه بالدموع .

وكان الجنود يسيرون سيرهم السريع ، والنساء يركضن ليستطعن مجاراتهم وهن يقدن اطفالهن باكيات ، وما كان بين النساء والاطفال الا كل باك منتحب .

وقال سبير في نفسه وهو يمسح دموعه : سحقا لهذه الموسيقى الجهنمية !

وعند ذلك اندفع من بين الصفوف جندى شاب ، وطوق عنق العجوز التى تسير بجانب سبير بذراعيه وهو يصيح في صوت يذيب الجماد : اماه ! اماه !

واندفع خلفه جاويش يصيح في قسوة وعنف : عد الى الصفوف !

وعاد الشاب الى الصفوف مهرولا ، وخرت العجوز على الرصيف خائرة القوى .

وانحنى فوقها الجاويش وقد تخلى عما يتكلفه من القسوة والجفوة ، وراح يربت عليها ويقول في رفق وحنان : لا تجزعى يا اماه .. لا تجزعى يا اماه .. سأسهر على سلامته وسأرده اليك .. لا تجزعى يا اماه .

ثم لحق بجنوده مسرعا .

***

حول سبير وجهه عن هذا المشهد المؤثر الرهيب وقد ضاق صدره بما يزخر به من الغصص والآلام ، وعاد ادراجه اذ لم يعد

فى طوقه احتمال هذه الموسيقى الهائلة الرهيبة .

ولكن الساعة الآن الرابعة ؛ وليس فى وسعه ان يعود الى بيته قبل أن يقوم بعمل يخفف من لوعته ؛ ويهدىء من شجونه ولواعجه .

وسار الى المحطة فى خطى بطيئة متثاقلة فوجد الجنود مصطفين فى قناتها ولكنه لم يجرؤ على محادثة اوتوى او سايكس اوسواهما من الراحلين لئلا تنفجر عواطفه الحبيسة المكظومة ، ويتخلى عما تبقى له من العزم والجلد

والتقى بالكولونيل راناوى الذى يشرف على مخازن الفرقة ولا يرحل مع الراحلين الى الميدان ، فسأله : اريد ان اذهب يا كولونيل ..

ــ انه ؟ تذهب الى اين ؟

ــ الى الحرب . لقد قرات فى الصحف ان المدنيين يمكنهم نيل الرتب العسكرية اذا حصلوا على التزكية اللازمة .. فهلا تستطيع الحاقى ضابطا بالجيش ؟

ــ فى امكانى هذا طبعا اذا كنت لائقا للخدمة . كم عمرك يا سيبير ؟

ــ ست وثلاثون .

ــ هذه تكاد تكون نهاية السن المحددة للضباط

ــ اذا تعذر ذلك فلا مناص لى من الانتظام فى الجيش كجندى بسيط يجب ان انخرط فى سلك الجندية على اية حال .

ــ سافعل كل ما يوسعى لمساعدتك .. فاحضر الى الثكنات فى الصباح كى اطلب الى طبيب الفرقة فحصك .

وعاد سيبر الى بيته وقد خفت لوعته وسكنت شجونه .. انه لاشد صبرا على مواجهة الردى منه على الوقوف امام هذه المشاهد مكتوفا مغلولا ان انجلترا فى خطر .. وهيهات ان يعلم احد بمدى ما يكنه لوطنه من الحب العميق المضطرم .

* * *

لم يكاشف مابل بما عقد عليه عزمه اذ كان هذا الشان من الشئون التى لا يمكن ان يتفقا فيها . كما كان يعلم انها ستقول له : وما الذى حملك على ذلك ؟

وخرج بعد ساعات من حضرة الماجور ايرتشو طبيب الفرقة وهو يغمغم : لقد احسنت صنعا اذ لم انبىء مابل بعزمى ..

ولقد وصل الى المعسكر والضباط القلائل الذين تخلفوا به لا يزالون يتناولون طعام الافطار .. فهب الدكتور ايرتشو من مجلسه فى الحال واقتاده الى قاعة البليارد حيث فحصه بصفة غير رسمية .. ثم هز راسه قائلا :

ــ لا امل البتة فى قبولك يا سيبر

قال : هذا طبعا فيما يتعلق بالحاقى بالجيش كضابط ، وانى لارغب فى الانخراط فى سلك الجنود .

اجاب الطبيب : ليس ثمة من فرق بين الحالتين . على انهم قد يخففون قيود التطوع اذا طالت هذه الحرب ولكنك بالنظر الى حالة قلبك لن تكون الا فى آخر من يقبلون .

ودار بدراجته متثاقلا فى ساحة المعسكر يريد الخروج ، فرأى جمهورا من الشباب يحتشدون عند مكتب التطوع وهم يضحكون ويمرحون . وود سيبر لو ان فى وسعه ان ينظر الى الامر فى ضحك ومرح كما يفعلون ؛ وما لبث ان قال : ولماذا لا افعل ؟ ان هؤلاء المتطوعين لن يشتركوا فى الحرب على اية حال ، فستنتهى قبل ان يتموا تمرينهم .

وكانما ارادت الاقدار ان تحرمه حتى مما يفرقه عليه هذا الخاطر من الهدوء والثبات ، فالتقى ذات يوم عند ادارة صحيفة المقاطعة بشاب يدعى هاركنس ، وهو ضابط تخلف عن الرحيل مع الفرقة لمرضه .

وقال هاركنس فى شيء من الاستغراق : هالو سيبر . لقد كنت الآن مع بابك لارى هل وصله شيء من الانباء اذ بلغتنا بعض الاخبار

ووقف الشاب عن الكلام ووجهه يفيض بسمات الحزن والالم . فساله سيبر : اخبار ؟.. عن الفرقة ؟

وقال الشاب وهو يطرق براسه ويكاد يغص بريقه : اجل من الفرقة وانها لاخبار سيئة جدا .

قال سيبر وهو واجف قلق : هل ..؟.

فاندفع هاركنس يسرد قائمة طويلة وابصاره لا تكاد تستقر على وجه سيبر : قتل الكولونيل . وقتل بروس . وقتل اوتوى ..

وهتف سيبر : اوتوى .

ــ وقتل كوتلر . وقتل بولن ..

اسماء لا نهاية لها ، وكل منها يقع من نفس سيبر وقع الصاعقة المنقضة !

ــ وقتل كارمكل ..

واضطرب الشاب وهو يقول فى صوت اجش : وقتل اخى الصغير . وقتل سايكس .

ــ قتل سايكس . . واخوك الصغير .

فقال هاركنس : اجل ، واقسم ان الفرقة كانت مجيدة فى بلائها . ورباه لماذا لم اكن هناك ؟

لم اندفع في سبيله لا يلوى على شيء .

وتدافعت الآلام والغصص في صدر سبير ، وتمثل اوتوى وهو يبوح له عشية الرحيل « كان ينبغي ان تشهد عرض الفرقة في هذا الصباح يا سبير » ثم تمثله وقد كسا وجهه شحوب الفناء . وتمثل سالكني وهو يهتف من فوق المنضدة : « لن آخذ معي غير الجوارب .. ساحشو حقيبتي بالجوارب » ثم تمثله ملقى في احدى ساحات القتال كالخرقة البالية ..



وبينما هو في ذهوله واستغراقه أقبل عليه الشاب بيرس بادى الانفعال ، وقال وفي انفاسه شيء من البهر والاضطراب : هل سمعت يا سبير هذه الانباء المروعة الهائلة عن الفرقة ؟ انني في اشد الحاجة الى معونتك . اريد منك ان تتحدث الى امي فانها تحبك وتصغي الى قولك . لقد اعتزمت التطوع .. وكنت ارجيء انفاذ هذا العزم من يوم الى آخر رغبة في تنظيم شئوني واقناع امي . ولكني لم اتقدم خطوة في هذا السبيل ، ولم يعد في طوقي التأجيل والانتظار .

قال سبير : يا الله .. او تريد التطوع يا بيرش ؟ أولا ترى من ذلك بدا ؟ ووالدتك .. ماذا تراها تفعل بدونك ؟ لسوف ..

فاهتزت اجفان الشاب ألما واجاب : اعرفه .. اعرفه ... ان التفكير في ذلك يكاد يقتلني ، ولكني اعلم اني على صواب فيما اعتزمت يا سبير . لقد عشت طوال حياتي بامي ، وكان فراقها امرا لا سبيل الى التفكير فيه منذ شهرين اما اليوم فان الوطن يناديني ونداء الوطن في رأيي فوق نداء الام .. انها تقول ان فراقي يقضي عليها ؛ وما اشك في صدق ما تقول يا سبير ؛ ويالله لو وقعت هذه الكارثة ، ولكني لا املك لهذا الامر دفعا ، وسألتك بشيء آخر يا سبير .

وهنا تجهم وجهه الذي كان قبل ذلك محمرا كانما بكى الشاب طويلا ، واستطرد يقول : ان الناس يتحدثون عني كثيرا . ويتحدثون الي كثيرا ، لانني فتى اعزب وليست لي زوجة اعولها . الا لعنة الله عليهم .. ماذا يعرفون من امري ؟ اليست زوجاتهم صغيرات اقويات يستطعن العناية بانفسهن ؟ اما والدتي فما تستطيع ان تهبط السلم بدوني .. وهي لا تسمح لشخص آخر ..

ثم مر على عينيه بيده وقال : ولكن دعنا من هذا . فاني اعرف ما يجب ان افعل . ولكنك تعرف كثيرا من الناس يا سبير . ولعلك تستطيع ان تدلني على فتاة مهذبة رشيقة تعيش مع امي وتقوم مقامي في العناية بها اثناء غيبتي . ينبغي ان تكون صغيرة السن

والا قذفت بها امي من النافذة بعد يومين . انها لتقسم جهد ايمانها ان لن تسمح لاحد بالاقامة معها . ولكني اعتقد انني ساحملها على القبول اذا وفقت الى الفتاة الصالحة لهذه المهمة . اريد فتاة تنظر اليها امي في أول الامر بازدراء وتدعوها « طفلة حمقاء » . ولكنها سرعان ما تألفها وتحدب عليها حدب الام الرءوم لمجرد كونها « طفلة حمقاء » ! اسألك بالله يا سبير ان تساعدني في ذلك اذا استطعت هل تعرف احدا ؟

احس سبير وهو يصغي الى كلمات الشاب انها ليست الا تتمة للانباء المروعة الهائلة التي افضى اليه بها هاركنس .

يا لله من هذه الحرب الضروس الهائلة ! اتراها لا تعف حتى عن هذه العجوز الضعيفة الفانية التي لا عضد لها في الحياة ولا قوة غير ولدها ؟

وقال : انني لشديد الحزن من اجل والدتك ومن اجلك يا بيرش ولكنك ادرى الناس بما يجب عليك . وما احاول ان احيدك عما عزمت او اثنيك عنه . فان كل امرىء في رأيي اعدل حكم على نفسه في مثل هذا الامر الخطير . وساساعدك طبعا . ومن محاسن الصدف انني اعرف فتاة تلائم غرضك كل الملاءمة ..

فقبض الشاب على يده في جذل وقال : كنت اعلم ان في وسع المرء ان يعتمد عليك دائما !..

قال سبير : لقد اعتمدت عليك يا بيرش وعلى والدتك اكثر مما يخطر ببالك ويسرني ان اسدي اليك معونتي اذا استطعت ، ولقد سمعت منذ ايام قلائل ان مقدم العمال في مكتبي ، وهو شيخ يدعى برايت ، يلتمس لابنته عملا كهذا .. واني لاعرف الفتاة اذ رأيتها وتحدثت اليها مرة او مرتين اذ جاءت الى الشركة لمقابلة ابيها ، وشعرت نحوها بميل شديد ، انها بارعة الحسن ، واسمها ابقى .. وما اشك ان والدتك ستألفها وتميل اليها اشد الميل ، وما اشك ان الفتاة ستصفي امك الحب والمودة .. سابحث في الامر فورا ؛ فاطمئن بالا يا صاح ..

ـ اشكرك .. اشكرك جزيل الشكر يا سبير ..



كان سبير قد علم بالرغبة في الحاق ابقى بعمل من الاعمال من توانتنج ، ووالدها مستر برايت رجل قوى الجسم ، حاد الملامح ، اصلع الرأس ، يحيط بوجهه شعر ابيض كثيف منتصب . وهو في خدمة الشركة منذ التحق بها القس فورشون نفسه

ولم يكن عمله يتصل بسبير في كثير ولا قليل ، ولكنه رجل لا نطيق أن يحضر اليه أحد أمرا فيما بدا لسبير ..

ثم انه متعبد شديد التدين ، له تلك النظرة الحادة النفاذة التي يتميز بها ذوو الحماس الديني .. وعماله يكنون له أشد البغض لاسرافه في التدين والعبادة ، ويرهبون منه قسوته وتجرده من الرفق واللين .. ولقد كان يسير في المتاجر بخطى ثقيلة عنيفة ويحدق في وجوه الشباب من العمال كأنه يستشف ما يستكن في أعماق نفوسهم .. وكان هذا الخاطر نفسه يجول في ذهن سبير اذا ما تحدث اليه ذلك الشيخ ..

وعجيب أن ينجب هذا الشيخ القاسي فتاة رقيقة مثل ايفي .. كان سبير يدعوها ايفي المشرقة ، فلقد رآها عندما تحدثت اليها تفيض طلاقة وبشرا ، وتفيض على كل ما يتصل بها لونا بهيجا مشرقا ..

ولقد أفضى سبير بما شعر به عند مرأى ايفي الى زميله توابنتج .. واتفق أن كان ينظران من النافذة معا ومستر برايت يعبر الشارع مع ايفي في طريقهما الى المنزل .. وكان حبل المودة متصلا بين توابنتج وبرايت . فضحك توابنتج ضحكته القصيرة وقال : يلوح انك تفكر كثيرا في ايفي الحسناء ..

ثم أردف وهو يشير من طرف خفي الى رأي سبير فيما ينبغي أن يكون بين طبقات الناس من التفاوت . ولكنها مرغمة على العمل في سبيل العيش مهما بلغ من حسنها وجمالها .

وتجاهل سبير هذا الغمز وقال : وماذا يريد برايت الشيخ أن يصنع بها ..؟

ـ انه لم يستقر على رأي بعد .. ولكنه تحدث الى زوجتي منذ بضعة أيام برغبته في الحاقها كرفيقة لاحدى سيدات الطبقة العليا ..

هذا هو ما حدث بين سبير وتوابنتج .. فلما أفضى اليه الشاب بيرش برغبته .. أسرع من فوره الى توابنتج وذكره بذلك الحديث الذي دار بينهما ..

وهتف توابنتج : ألا تزال مهتما بأمر ايفي الحسناء ؟..

ـ انما أسأل عنها من أجل بيرش الذي يقيم في بيتي حزين ، كي تكون رفيقة لوالدته ..

وأردف سبير وقد استقر بصره لحظة على هارولد وهو جالس الى مكتبه :

ـ ان بيرش شاب ، وهو يشعر ان من واجبه التطوع في الجيش ويطلب فتاة تعيش مع والدته اثناء غيبته ..

فقال توابنتج في تودد ولين : كلا يا صديقي ، ان ايفي لم تجد عملا بعد . وكانت عندنا لتناول الشاي يوم الاحد الماضي ..

ـ حسنا ، سأذهب لمحادثة برايت العجوز فاني مهتم بهذا الامر اشد الاهتمام ..

ـ أجل .. أرى ذلك أيها الصديق ..

***

كان لبرايت العجوز دولاب صغير عند أسفل السلم الرئيسي يحفظ به أدواته ويدعوه « مكتبه » وقصد اليه سبير وأفضى اليه باقتراحه ، فراعه من الرجل تحديقه فيه كأنه يستريب به ويحاول أن يستشف من وراء هذا الاقتراح غاية أخرى ..

وقال برايت : انهم يريدون طبعا الاستعلام عن ابنتي ؟..

اجاب سبير : لن يحتاجوا الى شيء من ذلك عندما يعرفون من أنت يا مستر برايت ..

قال : ولكنني في حاجة الى الاستعلام عنهم .. فلقد احسنت تربية فتاتي واحطتها بأشد الحرص والحذر ، وما أريد أن تتعرض لما لا أحبه لها ..

وقال سبير في نفسه : سحقا لهذا الشيخ المأفون ! أيظن لي مآربا آثما في فتاته وانني احتال على الوصول اليها ؟..

وكاد يغلظ له في القول لولا ان ذكر حاجة بيرش وأمه فقال متلطفا :

ـ اني لأعرف حسن تربية ابنتك يا مستر بيرش ، وما كنت لأطلب اليك ارسالها الى مكان لا يجمل بها .. لن يكون في البيت سوى السيدة العجوز وهي كريمة الطباع ستتخذ من فتاتك ابنة لها ..

ـ سأذهب بفتاتي وأرى بنفسي يا مستر سبير ..

***

ذهب سبير في المساء الى بيت آل بيرش فاستقبله الشاب عند الباب في جذل وابتهاج : شكرا لك يا مستر سبير .. لقد جاء برايت وابنته واتفقا على حضور الفتاة للاقامة مع والدتي ، وقد تم بيني وبين أمي شجار عنيف بشأنها منذ هنيهة ، ولكنها عادة أمي كما تعلم .. انها لفتاة عجيبة حقا ..! لم تكد أمي تراها حتى توثقت بينهما أواصر الالفة والمودة كأنهما يعرفان بعضهما منذ سنين ، وستحضر بعد غد للاقامة هنا ..

قال سبير : وفيم كان الخلاف بينكما الآن اذا كانت الفتاة قد راقتها ؟..

ـ أنت تعرف غرابة أطوار والدتي وسرعة تقلبها من النقيض الى النقيض ، وهي الآن تزعم أن الفتاة ما جاءت الا لاقتناصي ، ولكننا سنمحو من خاطرها هذا الوهم .. هيا بنا لملاقتها ..

واستقبلته مسز بيرش قائلة : لعل بيرش قد انبأك بما ارغمني اليوم على عمله يا مستر سبير .. انه لمن أعجب الامور ان اكره على ما أريد في هذه السن ، لا ريب أنها تسعى الى اقتناص فريدي .. أتحسبني أغفل عن هذه الحقيقة ؟.

قال سبير : ولكنها لن ترى فريدي اذ سيكون بعيدا من هنا ..!

ـ ولكنها مع ذلك ستقتنصه .. ان أية فتاة تستطيع اقتناص فريدي لانه غر ساذج .. وستنقل الآن مقعد الخال هنري الى غرفتها ..! شيء ظريف حقا .. أليس كذلك ؟..

فاعترضها الشاب قائلا : انك تعرفين ان هذا الرأي رأيك أنت يا أماه اذ قلت انك واثقة من ان ظهرها ضعيف ..

ـ ولكن لم يدر بخلدي قط ان تأخذ مقعد خالك هنري لظهرها الضعيف او لغيره من الظهور .. سل مستر سبير عن رأيه .. سله !..

فقال سبير : ولكنك تحبين الفتاة يا مسز بيرش ؟..

وزمت مسز بيرش شفتيها قائلة : لم اقل انني لا احبها .. انما أسأل عن الفائدة من وجودها بهذا البيت ، وما خطر ببالي عندما انبأني فريدي بعزمه على احضار رفيقه انه سيأتيني بهذه الطفلة الحمقاء .. أؤكد لك انه لم يدر في خلدي انه سيفعل بي هذا ..

وتهالكت مسز بيرش على مقعدها فجأة وهي تقول في صوت واهن مريع : لست أحفل الآن بمن يأتي الى البيت . وهيهات ان احتمل أثقال الحياة بعد اليوم كما كنت احتملها ..

ثم جالت الدموع في مآقيها واخذت تنحدر على وجنتيها وهي تقول : قد انهدت قواي وليس في وسعي العيش بدون فريدي .. اني احب الفتاة .. ولكني سأرى وجه فريدي المشرق المتهلل حيثما التفت في هذا البيت الذي طالما نعمنا فيه معا اذا ما افتقدته .. لماذا يذهب يا مستر سبير ؟.. لماذا يذهب ؟.. اني لا افهم قط فيم هذه الحرب المشئومة ..

وسقطت عبرة على يدها المغضنة فأخذها الشاب بين يديه وراح يربت عليها قائلا : لا بأس عليك يا أماه .. انك تظنين اني ذاهب الى القتال ، ولكني لن ارحل الا الى معسكر للتدريب هنا في انجلترا حيث أمكث زمنا قصيرا .. ولسوف تنقضي هذه الحرب قبل عيد الميلاد فأعود اليك مسرعا وتقذف بنفسي براينتي الى بيتها . ولا تبكي يا أماه لا تبكي أليس كذلك يا مستر سبير ؟. مجرد تمرين في انجلترا .. أين منديلك يا أماه ؟.. هاك منديلي ، انظري .. انه المنديل الذي ابتعناه عندما ذهبنا الى تيدوردو .. هل تذكرين كيف ضحكنا في ذلك اليوم من منظر ابريق الشاي ؟ دعيني امسح دموعك ..

حول سبير بصره ..

يا لله من هذه الحرب الهائلة !..

الفصل السادس

جاء عيد الميلاد الذي حسب الناس ان الحرب ستنتهي قبله .. ولكنها لم تنته .. وحل يونيو سنة ١٩١٥ الذي أكد فيرشون وتوابنتج وهارولد ان الحرب لن تمتد بعده ، ولكنها امتدت ولا تزال تمتد ..

يا لله من هذه الحرب الهائلة !..

كانت هذه العبارة لا تفتأ تتردد على لسان سبير كلما جد حدث من احداث هذه الحرب الضروس ، أو حلت كارثة من كوارثها .. اما غيره من الناس فلم يكونوا يحسون بوطأتها الا فيما يتصل بمصالحهم وحياتهم اليومية .. ولقد قرت قلوبهم بعد الوجيب والقلق ، وحل التفاؤل والاطمئنان محل التشاؤم والجزع اذ انجابت موجة الذعر التي غمرت الناس في أول الحرب وسارت الحياة من جديد في طريقها المألوف .. فنشطت الاعمال بعد الركود .. وهبطت الاسعار بعد الارتفاع .. وأمن الناس ما كانوا يخشونه من القحط والجوع ..

ولكن سبير لم يصب لسوء الحظ مثل ما أصابوا من الطمأنينة .. ولم يخلص نفسه مما يثقلها من الهموم والاحزان .. وما شأن الاعمال والاسعار بهمومه وأحزانه ؟.. لقد زالت مخاوف الناس من الجوع والقحط حقا .. ولكن لاتزال هناك تلك المعارك الدامية الرهيبة في البلجيك والروسيا وغاليبولي .. ولا تزال هناك تلك الحقيقة الهائلة التي تكشفت عنها الاحداث .. وهي أن انجلترا

تواجه عدوا مريعا كان يستعد للأمر منذ زمن بعيد .. ولا يتورع من شيء في سبيل احراز النصر ..

ولا يزال هناك كذلك هذا السؤال الذي يتردد في كل شارع ويبدو في كل صحيفة .. وتنطق به ألسنة الكثيرين .. ويتجلى في نظرات السواد الاعظم من الناس : لماذا لم تنتظم في الجيش ؟

ولقد تطوع بعض صغار مستخدمي الشركة في الاسابيع الاولى للحرب .. وبعد ثلاثة اشهر من ابتدائها جمع مستر فورشون عمال الشركة جميعا في مكتبه .. واخذ يبين لهم ما يجب عليهم نحو وطنهم ، ثم اعلن ان وظائف من يلبون نداء الواجب ستظل محفوظة لهم ..

وبينما كان العمال ينصرفون الى اعمالهم .. تأبط توايننج ذراع سيبر في مودة واخذ يقول ان ولده هارولد يتلهف على التطوع .. ثم اردف :

ولكنني أرى ان الغلام حديث العهد بالشركة . ولا يجمل بي كشريك ان ادفع الى ولدي مرتبا لايستحقه لانه لم يقض في خدمتها سوى اربعة اشهر ..

ـ ولكن لمَ تدفع له مرتبه ؟ لقد قال فورشون ان المرتبات تدفع للمتزوجين ..

ـ اجل ياصاحبي ، ولكني لا اكتمك انه سيشمل غير المتزوجين ايضا بهذا الامتياز ..

ـ ولماذا لم يخبرهم بذلك ؟..

ـ لانه يعتقد انهم يجب ان يقوموا بالواجب عليهم دون ان ينالوا عليه رشوة .. ان موقفي شديد الحرج ، ولكني لن اتزل على رغبة هارولد الا بعد أن يقضي هنا بضعة شهور اخرى لم خلالها بالاعمال ، وبعد ذلك يذهب طبعا اذا كانوا لا يزالون في حاجة الى الرجال .. الا ترى صواب رأيي ؟..

فانتزع سيبر ذراعه واتجه نحو غرفته قائلا : ان كل امرىء خير حكم على نفسه ..

وسأله توايننج فجاة : كم عمرك ؟..

ـ لماذا ؟.. ست وثلاثون ..

فضحك توايننج قائلا : آه .. انني اكبر منك .. واكبر ظني انك ستنال فرصة الانضمام الى الجيش اذا عملت الحكومة بما تشير به التيمس والمورننج بوست وغيرهما من صحف المحافظين انك لم تنجب اولادا .. أليس كذلك ؟..

كان هذا في الشهر الثالث من الحرب .. اما في يونيو سنة ١٩١٥ فقد اخذ اللوم ينصب على المتخلفين عن التطوع .. ونظرات المقت والازدراء تأخذهم من كل جانب ..

وتطوع الشاب هارولد توايننج فاستقبل سيبر نبأ تطوعه في حمية وحماس .. وهنأه تهنئة حارة صادقة .. وبعد قليل اقبل ابوه .. ! واحس سيبر ان في مسلكه عداء صريحا مقصودا ..

وقال : لقد ذهب هارولد ..

اجاب سيبر اجل .. واني لمسرور اشد السرور من اجله .. وقد هنأته الآن بعمله المجيد ..

فنفخ توايننج في انفه في عنف وهو يزمجر . مجيد ؟. لقد كان يريد الذهاب منذ زمن بعيد .. وها هو قد ذهب عسى ان تكون قريرا راضيا ..

واستدار اليه سيبر في مقعده قائلا : ماذا تعني ؟..

ـ لقد كان رأيك دائما انه يجب ان يذهب .. انك احد الذين عملوا على ارساله الى القتال ..

ـ هذا هراء وهذر .. فما تحدثت الى هارولد في هذا الامر قط ولا اشرت اليه من بعيد او قريب .. ولقد قلت لك منذ زمن بعيد انني اعتقد ان كل امرىء خير حكم على نفسه في مثل هذا الشأن ..!

واستخذى توايننج اذ رأى من سيبر بوادر الغضب وقال :

ـ وما قيمة هذا الآن ؟. لقد ذهب ، وسيرتدي الليلة الثوب العسكري ، فلا يستطيع احد ان يشير اليه مزدريا ..

ثم أخرج منديله ومسح عينيه في تمهل واستطرد قائلا :

ـ ما ينبغي لك ان تفهم وقع هذا الامر علي الا اذا صار لك ولد يا سيبر .. انك تجهل قيمة ولدي عندي .. انه يعدل العالم بأسره في نظري .. وقد احضرته الى هنا ليكون معي ، وها هي هذه الحرب الملعونة قد انتزعته وفرقت بيننا ، لست تعرف من هو .. ولدي هارولد ، انه خير من ابيه بكثير .. هو غلام مسيحي صالح لم يدر في خلده فكر سيء قط ، ولا تدنس لسانه بكلمة لخنا ..

ثم اشتمل غضبا كانما استثاره منظر سيبر وهو جالس الى مكتبه فهتف : حسن ان تجلس في مكانك هذا .. انك لست براحل .. ولكن لا بأس عليك .. فقد ذهب ولدي هارولد ، لك الآن ان تقر عينا ..!

وهب سبير واقفا وهو يقول : انظر ياتوايننج .. انني آسف كل الأسف لحزنك على فراق هارولد ، ولذلك أتجاوز عما يصدر منك .. ولكن ..

ـ لا أريد أن تتجاوز عن شيء .. لا اريد ..

ـ لقد كررت العبارة السخيفة التي نطقت بها عند دخولك .

فتبدل مسلك توايننج وانفجر ضاحكا وهو يقول : لا تغضب يا صاحبي فليس في الامر ما يستوجب ان نتخاصم .. لم اقل الا ان الناس كانوا يريدون ذهابه ولم اكن أعنيك بما قلت ..

دخل سبير غرفة فورشون بعد ذلك بوقت غير طويل للاطلاع على بعض المحفوظات فالفاه مستغرقا في الحديث مع توايننج .. وكثيرا ما يستغرق الرجلان في الحديث هذه الأيام فكفا عما كانا فيه عند دخوله وسار سبير الى دولاب المحفوظات دون ان ينطق بكلمة ..

وقال فورشون وهو يجد مشقة في الكلام : سبير .. سبير .. لقد كنا الآن نقول ..

وعلم سبير من هــذا التلعثم ان ما سيقوله غير ما كانا يقولانه حقا ..

واستطرد فورشون قائلا : كنا نقول ان الشركة سيئة الحظ جدا .. اذ ليس بيننا من يشرفها بالانضمام الى الجيش ، ويضرب أحسن الامثال لأولئك الجبناء الذين لم يتطوعوا من عمالنا ..

فقال سبير : هذا يستوجب الاسف حقا ..

ـ يسرني أن تتفق معي .. اما انا فخارج من الموضوع بطبيعة الحال وتوايننج قد اشرف على الاربعين ، ثم انه قدم ولده للحرب وعليه واجب للشركة اذ لم اعد من القوة بحيث احمل عبء الاعمال وحدي .. وانت ، انت طبعا متزوج ، لقد بلغني أن فلبس ، احد أعضاء شركة براون وفلبس ، قد أقنع زوجته بالموافقة على تطوعه وقد كنت زميلا له بالمدرسة يا سبير فيما أظن ، فهل هو مثلك في العمر ؟..

واحتدم الغضب في صدر سبير ولكنه سرعان ما قال في نفسه : « انهما لا يصدران في هذا عن وطنية وانما يرميان الى مآرب أخرى وهيهات ان ارخص من عواطفي بالتحدث منها اليهما » ..

ثم التفت اليهما قائلا : لقــد تقدمت للتطوع منذ عهد بعيد ولكنني لم اقبل لضعف قلبي ..

فاسقط في يد فورشون .. وهتف توايننج : حقـا ؟.. انهم

يعطون من يرفضونهم ورقة ، وشد ما ارغب في رؤية احدى هذه الاوراق .. هل تسمح لي بان ارى ورقتك ؟..

اجاب : ان ضباط المعسكر اصدقائي وقــد فحصوني فحصا خاصا ولم يعطوني شيئا ..

ثم سار الى غرفته وهو يقول : انهما يريدان التخلص مني ..

❊❊❊

وقد تقدم للتطوع مرة أخرى في اغسطس فرفض ايضـا .. ولكن بعد فحص دقيق اذ كانت القيود الطبية قد خففت كثيرا واعطوه « الورقة » التي اشار اليها توايننج ..

على انه لم يطلع فورشون وتوايننج على ما فعل .. فقد كان لا يعنيه منهما شيء ..

ولكنه اظهر مابل على عزمه عشية اليوم الذي اراد تقديم نفسه فيه .. وكان مبتهجا اشد الابتهاج اذ اشرق الأمل في فؤاده من جديد ، وحين بدا له أن مابل تبــدي بعض الاهتمام بعزمه ، وطالما حاول التقرب منها وتضييق مسافة الخلف بينهما ..

وما كاد يتحدث اليها عما يعتمل في نفســه من العواطف حتى راى انها لن تفهم خوالجه وافكاره مهما بذل في هذا السـبيل فانصرف الى غرفته دون أن يذهب هذا بشيء من سروره واستبشاره ..

وعاد في اليوم التالي بعد ان رفضوا قبوله حزينا كاسف البال وقالت له مابل : لا اكتمك سروري برفض تطوعك ، فقد البـأتني مسز تيرنر أن ولدها رآك بين المتطوعين في صفوف الجنود ، وما يلائم مكانتك الا ان تكون ضابطا اذا كان لابد لك من التطوع ..

وانفجرت ضاحكة فهب سبير واقفا وهو يشعر باشد النفور من مسلكها ، وسألها : ماذا يضحك ؟..

ـ حسنا .. تصور هيئتك في ثياب نفر !..

ثم انفجرت ضاحكة من جديد .. وسار هو الى غرفته ..

الفصـل السابع

واكب على كتابة رسالة ضافية الى لونا اودعها كل ما يجيش بصدره من لواعج الهم والأسى لرفض تطوعه مرة أخرى .. ولقد كان في العهد الأخير يكثر من الكتابة اليها ويتلقى رسائلها بانتظام فما كان يجد سبيلا غير هــذا الترويح عن نفســه مما يجثم على صدره من الهموم والآلام ..

ومنذ كتبت اليه عقب اعلان الحرب تشكر له تأخيرها عن انفاذ ما كانت تعتزمه من تحطيم اغلال الواجب والتصون ، والمرح

بين حياتها وحياته في ظلال الصبابة والهوى ؟ لم تشر أحدهما الى ذلك الموضوع قط ..

وما كانت تغفل عن ذكر زوجها فى رسالة من رسائلها ، وقد انبائه انها تكتب الى اللورد تايلر يوميا ، ولا تنفك عن ارسال مختلف الهدايا اليه .. وهو يبعث اليها احيانا بقصاصات من الورق فى بعض الشئون والمصالح ، ولكنه لا يعنى قط بالرد على احاديثها المستفيضة ، ولا تقف على انبائه الا من خطاباته وحظاياه.

على انها ترى أن من واجب المرأة فى هذه الظروف ان تشد أزر زوجها وتنفث فيه روح العزم والاقدام بما تحيطه به من الوان العطف والرعاية .. وما تشك انها عائدة الى مقاساة ما كانت فيه من الم مبرح وهم ناصب حين تنتهى هذه الحرب ، اذا قدر أن تنتهى ؛ بيد ان الماضي بما يحفل به من الذكريات الاليمة يجب ان ينسى ما دام توني فى ميدان القتال ..

ولقد كتبت الى سيبر فى بعض رسائلها : « انه زوجى ... زوجى الذى وهب نفسه لانجلترا ، وهو الآن دون سواه موضع تفكيري ومحذرى ودعائى » ..

« وهو كذلك رجل قد ليس له من نظير ، وقد حدثتنى اللدي كنجواوبى زوجة قائد فرقته نقلا عن زوجها ان شجاعته منقطعة النظير ، وانه يقتحم من المخاطر والاهوال وهو يبتسم ما ترتعد من ذكره فرائص الابطال » ..

❊❊❊

كان سيبر يستشف من رسائلها مثل حبه العنيف لوطنه ؛ ويرى خلال سطورها صورة مما يعتلج فى صدره من الهموم والآلام؛ فيشيع فى نفسه بعض الراحة والهدوء .

وكتبت اليه تنبئه انها اعدت جمعا من السيارات الى الصليب الأحمر باسم زوجها ، وانها راحلة الى فرنسا لتتولى قيادة احدى تلك السيارات بنفسها ، وستحضر الى ضيعة نورثريب بعد اسبوعين لتنظيم شئونها قبل الرحيل ..

وفى اليوم التالى لوصول رسالتها هذه ، نشرت الصحف نبأ الانعام على اللورد تايلر بوسام صليب فيكتوريا لفرط بسالته واقدامه ..

❊❊❊

هبطت تونا ضيعة نورثريب بعد اسبوعين كما كتبت الى سيبر

وذهب لزيارتها فكان اول حديثه عن الانعام بصليب فكتوريا على زوجها ..

وكان سيبر قد وقف فى النشرة العسكرية على الوقائع المجيدة الباهرة التى افضت الى ذلك الانعام ، وطفقت تونا تتحدث فى حمية وحماس ، ولكنها لم تلبث أن قالت فى حزن : وبعد ذلك ؟..

ـ ماذا تعنين يا تونا ؟..

فابرزت من حقيبتها رسالة وهى تقول : لقد تلقيت هذه صباح اليوم وانا على وشك الحضور الى هنا .. وهى رده على ما كتبته اليه عن هذا الانعام . اواه يا ماركو ! .. ان هذا الرجل العجيب فى شجاعته ؛ لعجيب كذلك فى قسوته .. وهو يقول انه حصل على اجازة سيمضيها فى باريس ، وهناك الآن مسز وتفريد احدى خليلاته ، فقد اتصل حبل الود بينهما مرة أخرى . وهو يقول فى الرسالة « مسكينة .. انها وحيدة فى باريس » وانى لاعلم مقدار رثائك لها وعطفك عليها ، واشعر ان من واجبى الذهاب اليها والتخفيف عنها .. لاريب انك توافقين ، وساخبرها انك ارسلتنى فتجد فى ذلك سرورا ومتاعا » ..

ومسحت عينيها بمنديلها ثم استطردت قائلة : ان هذا يؤلم يا ماركو ، لست احفل بذهابه اليها ؛ فما اتوقع منه غير ذلك .. ولكنه يتعمد ارجاء النبأ الى فى هذه القسوة لانه على علم بما يحدث لى من الألم ؛ انه عجيب حقا .. عجيب ، ثابت الجنان ، لا يعرف الخوف طريقا الى فؤاده ؛ ولكنه بلا عاطفة ولا مبدأ ولا ضمير !..

ومس سيبر ساعدها فى رفق وهو يقول : لنتمش قليلا يا تونا .

❊❊❊

بدا له ان الهزال قد نال منها ، فاستطال وجهها المستدير ، وتضاعف بذلك جمالها ، وراحت تتحدث اليه عما لقى من الخيبة والفشل فى التطوع لخدمة بلاده ، فكان صوتها رخيما يفيض بالعطف والحنان ؛ ثم اخذا يتحدثان عن الحرب ، فاذا بفؤاديهما تغمرهما عاطفة واحدة .. وما الحرب فى نظر غيرهما من الناس الا نقاش فى الفرص والاحوال ، وحوار فيما قد حدث ، وما كان ممكنا ان يحدث ، وفيما ينبغى أن يعمل ، وما كان ينبغى الا يعمل قط .. هى بحث فى وجوه العلاج ، بلا نظر الى نفس المريض ..

اما الحرب فى نظر تونا وسيبر فهى هذا الخطر الداهم الذى

يحلق على انجلترا .. انجلترا .. وطنهما المحبوب المعبود ..

وقالت : لو اننا اقدمنا على تلك الخطوة يامارك لما استطعنا ان نهب انجلترا قلوبنا خالصة من شوائب الدنس وارجاس الاثم ، وقد كان لك الفضل فى حفظها بريئة طاهرة ..

اجاب : بل الفضل لك دولي .. ان معرفة الطريق المستقيم يسير على كل امرىء ، ولكن السير فيه يتطلب القوة والعزم ، وهما ينقصان منك الى .. وما اشد حاجتى الى هذه القوة التى استمدها منك !.. انى لأحس احيانا كأن حلقات الضيق واليأس تستحكم حول فؤادى فتملك على انفاسى ، وما كنت لاقيم على هذه الحال لولا انى اذكر قصيدة الشاعر شيلى « الى الريح الغربية » فينفذ شعاع ضئيل من الأمل الى ما يكتنفنى من الظلمات وانا اردد قوله : « ايتها الريح .. اذا جاء الشتاء فهل يمكن ان يتأخر من بعده الربيع ؟ » ..

اعطينى منديلا يا دولى او اثرا منك احتفظ به واستمد منه القوة والجلد اذا ما تناوحت من حولي رياح اليأس والقنوط ..

فمست منديلها بشفتيها ثم اعطته اياه ..

❋ ❋ ❋

كان سيبر بعد شهر اكتوبر يقضى سهرتين على الأقل كل اسبوع مع مسز بيرش العجوز .. فقد رحل الشاب بيرش فى اكتوبر الى ميدان القتال ، واستكتب سيبر عهدا قبل رحيله بأن يسهر على امه ..

ولقد كان التدريب العسكرى فى العادة يفيض على الجنود مظاهر القوة والخشونة ، ولكنه لم يكسب ذلك الشاب غير رقة ودماثة كرقة النساك العابدين وخيل الى سيبر انه الآن اقرب الى صور الشهداء ، وان روحه اللطيفة لا تنزل من جسمه الا كما ينزل الطائر الفرد من الغصن المياد .. وان الموت لن يكون فى حاجة الى انتزاع هذه الروح كما ينتزع غيرها من الارواح وانما حسبه ان يومىء اليها ايماء رقيقا فاذا هى ترتفع فى السموات العلى ..

اما والدته العجوز فقد وهنت قواها ، وساء خلقها ، وراحت تنحى باللائمة على سيبر ، وعلى ايفى ، وتتهمهما انهما تآمرا مع ولدها على رحيله .. وكثيرا ما تقول : كان فى وسعى اخضاع فريدى يا مستر سيبر ؛ اما انت فمحال ان اتغلب عليك ! اما ايفى فلو رأيت مسلكها حيالى لاعتقدت انى الطفلة الشريرة ، وانها السيدة الرصينة الكبيرة !..

وعند ذلك تضحك ايفى المشرقة وتقول : انك لتعلمين يا مسز بيرش انك تصرين على المجيء الى مخدعى كل ليلة وأحاطتى

بالاغطية بنفسك ، فهل فى هذا يامستر سيبر مايشىء انها الطفلة ؟

وتهتف مسز بيرش حانقة : من الخير ان يعرف مستر سيبر اذا كان لايعرف ، انك لاتسمحين لى بان الفك فى الاغطية ليلة الا لتفعلى بى مثل ذلك فى الليلة التالية . اجل .. من الخير ان يعرف مستر سيبر كيف أعامل فى بيتى !

وهكذا تنتقل السيدة المسكينة من موضوع غضبها وانفعالها الى غيره من المواضيع ، ولا تزال ايفى بها فى براعة وحذق حتى تنسيها غضبها ، وتفيض عليها شيئا من السرور والرضى .. وسرعان ماتستغرق السيدة فى اغفاء وهى على مقعدها ؛ فيتحادث سيبر وايفى حتى تستيقظ ، ثم يستدرجانها الى حديث عن فريدى من شأنه ان يبعث فى نفسها السرور

ولكن كل حديث عن فريدى تحف به الاحزان والشجون ، وقد يبدأ بابتسامة تتلألأ فى فم الام الوالهة ! فلا ينتهى الا بالعبرات تهطل من مآقيها

ولقد قالت ايفى ان فريدى قبل رحيله اوصى امه بأن تعيد هذه العبارات عندما تريد النوم : « لقد ذهب ولدى ليقاتل فى سبيل وطنه .. انى فخورة بولدى اذ ذهب ليقاتل فى سبيل وطنه » .. فكانت السيدة المسكينة تهذى فى اغفائها وتغمغم بمسمع من سيبر وايفى قائلة « طاب صباحك يامسز فلان . لقد ذهب ولدى .. ليقاتل فى سبيل وطنه .. انى فخورة بولدى اذ ذهب ليقاتل فى سبيل وطنه .. طاب صباحك يا مسز فلان .. لقد ذهب ولدي .. لم يكن يبغى الذهاب ، ولكنى قلت له انه ينبغى ان يقاتل فى سبيل وطنه . ولكن هذا ليس صحيحا يافريدى . حسنا جدا ياعزيزى .. طاب صباحك يامسز فلان »

وتنتبه المسكينة من اغفائها برجفة وهى تقول :

- ايه .. فريدى ؟ آواه .. ظننت فريدى بالغرفة ..

ثم تهطل العبرات ..

ووافى عيد الميلاد الثانى منذ نشبت الحرب ، واخذ سيبر يمضى ليلته بسهرة ممتعة مع آل فارجوس يلهو فيها ماشاء مع مستر فارجوس بلعب الشطرنج وحل الالغاز . وقد كانت هذه السهرات الممتعة فى جملة ماذهبت به الحرب من اسباب اللهو والسرور . اذ تطوع مستر فارجوس فى البوليس ليعمل كونستابل ، كما تطوعت فرقة بنات فارجوس لمختلف الاعمال بالجيش ، ولم يبق منهن غير ثلاث ، تعمل اثنتان منهن فى الارض

بدلا من الرجال الذين ذهبوا الى القتال ، وتضطلع الثالثة ، وهي كيت سنوى بنات فارجوس بشئون البيت .

وفيما كان الرجلان عاكفين على حل لغز من الالغاز ، اقبلت كيت تحمل رسالة وتقول في صوت مضطرب : رسالة لك فيما اظن يا مستر سيبر .. حملها غلام صغير الى بيتك وهو يقول انها ينبغي ان تسلم لك شخصيا في الحال ، فارسلته خادمتك الى هنا .

ـ رسالة لي ؟ ممن ..؟

وفض الرسالة فاذا فيها : « قتل فريدى ارجو مجيئك في الحال . اظنها تحتضر ـ ايفي برايت »

الفصل الثامن

ازفت الساعة الواحدة وسيبر وحده بالغرفة التي تضطجع بها مسز بيرش ، اذ نزل مع الطبيب فلما عاد وجد ايفي مستغرقة في النوم وهي جاثية الى جانب سرير المريضة لفرط ما نالها من الجهد والاعياء . فحملها الى مخدعها حيث اضجعها في فراشها ووضع فوقها دثارا .

يا لهذه الحرب المريعة الهائلة !..

لقد كان يرجو ان تنجو من همومها واكدارها ليلة ، فاذا بها تسوقه الى صورة من ابشع صورها ، ومشهد من انكر مشاهدها ، دون ان يكون له ابس يخفف عنه وطأة الهول والاسى ..

قال الطبيب انه عائد في الصباح ، اما الآن فليس ثمة ما يمكن عمله . وليس عليه الا ان يلاحظها فحسب .

يلاحظها ؟ وماذا عساه يلاحظ فيها ؟ انها ساكنة جامدة لاتأتي بحركة ، ولا يكاد يستبين الناظر تردد انفاسها الخافقة المتهافتة ، ووجهها كالقناع ، فليس به شيء من سمات الحياة وتعبيراتها .

انها تدلف الى النهاية كما قال الطبيب ، ومن وراء هذا المظهر الساكن الساجي عوامل خفية رهيبة تقوم بعملها دون ان تدركها الابصار . هنالك الموت يسل باصابعه الحاذقة الروح من البدن ، ويستخلص الجوهر الخالد من العرض الدائر ..

كلا .. هذا محال ! ليس ثمة من علامة ولا صوت ولا حركة انه وهم من الاوهام ، وسينقشع عن ذهنه عما قليل فلا يترك اثرا ..

ولكن بيرش الشاب قد مات .. قتل .. ان الامر حقيقة واقعة ، لا خيال عابر ، فيا لهذه الحرب الرهيبة الهائلة !

وحلت الساعة الثانية ، فذهب الى ايفي . ولكنها لاتزال مستغرقة في النوم فلماذا يوقظها ؟ ليس ثمة عمل ينبغي القيام به . ليس ثمة غير الملاحظة !

وعاد الى السهر والملاحظة . اجل .. انها تدلف الى النهاية كما قال الطبيب . انها تحتضر ؛ كما تخبو الجذوة المتالقة فلاتبقي من ضوئها ووهجها سوى ذرة كمستصغر الشرر ، ثم لا تلبث ان تخبو هذه الذرة المضيئة ايضا .

وها هي الحياة في هذا الجسد الواهن تتاثر وتتجمع كي تعاود الهجوم وتحاول رد اللون الى تينك الشفتين الذابلتين ، وبعث الحركة في هذا القناع الجامد .

ياله من لغز هائل مستغلق . ان في هذا الجسد لجهدا عنيفا رهيبا . والروح تتهيأ لمفارقة هذا المسكن الذي طالما صحبته وحلته ، ولكنها لاتسفر عن شيء من جهدها وكأنما ارادت المبالغة في التكتم والاخفاء فالقت على الوجه هذا القناع .

لقد تغربت في هذا الجسد سبعين عاما ، وها هي تتهيأ لمفارقته والاندفاع في غمار الابدية الرهيبة . فهل تراها واجفة مشفقة ؟

وشعر سيبر برعدة كرعدة المقرور تتمشى في بدنه ، فالقى في الموقد قليل من الوقود وقبع بجانبه هائما في مهامه التفكير .

يا لهذه الحرب الهائلة الرهيبة ! قتل الشاب بيرش فلن يراه ثانية ، ولن يرى مسز بيرش العجوز كذلك ، ولن تطأ قدماه اعتاب هذا البيت كسالف عهده .

ها هو ملجأ من الملاجيء التي كان يلوذ بها من لأواء الحياة وهمومها يغلق في وجهه ، وها هي الحرب تلاحقه بكوارثها وارزائها وتاخذ عليه المسالك والسبل على بعده عن معمعانها ، فكيف يتهيأ له العيش بعيدا عن ساحاتها وقد انتزعت بيرش الشاب وقضت على مسز بيرش العجوز وسدت في وجهه هذا الملجأ ؟ كلا .. ينبغي ان يجد طريقه الى غمارها ، فما يطيق على هذا الحال صبرا ..

وايقظه من استغراقه صوت عجيب في الغرفة . كان الكرى قد ران على جفنيه وهو جالس في مقعده ، فهل سمع ذلك الصوت العجيب حقا ام كان من الحالمين ؟

بل سمع الصوت حقا ، فها هي العجوز المحتضرة تتدافع الانفاس في صدرها شهقة ثقيلة مجهدة !

وركض سيبر الى الردهة هاتفا : ايفي ! ايفي !

وركع كلاهما الى جانب الفراش وقد استولى عليهما الذعر والرعب . لقد ازفت ساعة هذه المسكينة المسجاة فيما بينهما ،

وها هي تلن انينا خافتـا مريعا . واخفى سيبر وجهه بين راحتيه ونفسه تكاد تطير شعاعا من هذا الانين الرهيب .

ان ساكنة هـذا الجسد الخائر قـد فرغت من الـتهيؤ والاستعداد ، ووقفت الان عند الباب فى الظلام واجفة مرتاعة وانها لتريد العودة فما اطول ما اقامت بهذا المسكن الفته ، ولكن ليس الى العودة من سبيل ، فان الباب لايفتأ ينغلق من خلفها شيئا فشيئا ، وهى واقفة ترتعد على حافة هذه الهوة العظيمـة التى تشبه الفضاء اتساعا والليل البهيم ظلاما .

لقـد كانت المسكينة لا تملك ان تجتاز طريقها اذا لم يكن الى جانبها واحدها ، فانى لها أن تخطو وحدها هـذه الخطوة المريعة الهـائلة !

وهتف سيبر برش تعال ! اماه تعال هنا يابرش

واكبر ظن سيبر انه كان واهما فيما سمع بعد ذلك . ولكنه سمع أو خيل اليه انه يسمـع ذلك الشاب يهتف بامه من عالم الغيب قائلا : والان يا اماه لا تخافى يا اماه فانى هنا . . تعالى يا اماه . . خطوة واحدة . . خطوة واحـدة فقط يا امـاه . . لا استطيع الوصول اليك فعليك أن تخطى هذه الخطوة . انظرى يا اماه . . هاك يدى . . الا تبصرين يدى ؟

ـ ان الظلام دامس يا فريد .

ـ كلا يا اماه . ليس من ظلام الا حيث انت . اما هنا فنـور باهر وسنا متألق . لاتبكى يا اماه ولا تخافى ! فليس عليك هنـا من بأس .

ـ ان البرد قارس يافريدى .

ـ كلا يا اماه . ثقى بقولى وتعالى الى .

ـ لا اجسر يا فريدى . . لا استطيع . يا فريدى . لا استطيع

ـ بل يجب ان تأتى يا اماه ، انظرى . . الى هنـا . . انا ولدك . . فريدى . لا تبكى يا اماه بل ثقى بى كل الثقة . وطالمـا وثقت بى واعتمدت على . انظرى هاك يدى . خطوة واحـدة لم تلمسيها لمـا . انى لاعلم انك تشعرين بالضعف والخور ايتهـا الام المحبوبة ، ولكنك لن تشعرى بشىء من ذلك متى لمست يدى . ولكنى لا استطيع الدنو منك اكثر من ذلك ايتها العزيزة . يجيب ان . . آه ! مرحى ايتها الام الباسلة المحبوبة !

❋ ❋ ❋

وسمع صوت أيمى وهى تقول منتحبة : اواه لقـد ماتت ! ماتت !

ماتت ! حدق فى وجهها . اين ذهب ذلك القنـاع ؟ وانى لها هذا البهاء ؟ ان تلك الروح التى كانت تحل بجسدها قد انتت اليه بعد رحيلها عنه فاحدثت هـذا التبدل . لقد اغلقت الباب على ظلال بال ، ثم نظرت اليه فاحالته هيكلا قدسيا !

❋ ❋ ❋

جاء الطبيب فى الصباح فأبى سيبر انه قد اعد معدات الجنازة كلها ، وارسل برقية الى شقيق المتوفاة اذ عثر على عنوانه بين اوراقها . فليست بسيبر من حاجـة الى البقاء وانباء كذلك انه سيأخذ ايمى الى زوجته حيث تتناول طعـام الافطار وتنال قسطا من الراحة ثم يرسلها الى ذويها .

وهنا اقبلت ايمى فقال لها سيبر وهو يقبض على راحتيها !

ـ ستذهبين مع الدكتور يا ايمى . ولقـد تجشمت كثيرا من الجهـد والهول ، ولكن قد قضى الامر ، فلا تفكرى فيه كثيرا .

وابتسمت الفتاة فى حزن قائلة : انى الملتقى يا مستر سيبر . لست اجد الى شكرك سبيلا ، وما ادرى ماذا كنت افعل لولاك . انك لاكرم الناس يا مستر سيبر

ـ لم افعل من اجلك شيئا يا ايمى سوى النادر لما مر بك .

❋ ❋ ❋

عاد سيبر الى بيته تعصف به الاحزان والالام . وهو لايدرى كيف يطيق بعـد اليـوم ان يقف من الحرب موقف المتفرج على ما احدثته به نوائبها وارزاؤها .

كان يبغض ان يلقى مابل ، وكان يبغض ان يذهب الى مكتبه فيلقى فورشون ولوانتيج ، ولم يكن يستطيع أن يبث احـدا من هؤلاء نجواه ، ويخبره بما احدث بنفسـه مقتـل الشاب برش واحتضار مسز برش العجوز . ولكنه مع ذلك لايجد مـعدى من لقائهم ، ولا يستطيع الا ان يواجه الحرب فى كل صحـيفة . وفى كل منظر ، وفى كل حديث دون أن يساهم فيها

ورفعت مابل رأسها عن مائدة الافطار عنـد دخوله قائلة :

ـ حسنا . . انى لاعتقد . .

هـذه هى البداية

وقال سيبر : لقـد كنت عند مسز برش . .

ـ اعلم ذلك ، فقـد ارسلت الى آل فارجوس اسألهم عنك . ولابد لى من القول اننى اعتقد . .

ولم تطق سيبر على هذه اللجاجة صبرا فهتف : انظرى يامابل .. أسألك بالله ألا تقولى انك تعتقدين انه كان يجب ان أخبرك . اعرف انه كان ينبغى ذلك ، ولكنى لم استطع ، وما احتمل الآن الاطالة فى هذا الشأن . لقد قتل الشاب بوش وقضت امه نحبها . فأسألك بربك ان تكتفى بهذا القدر !

وغادر الغرفة .. على انه لم يلبث ان عاد قائلا : انى آسف على هذه الخشونة يامابل ، ولكنى عانيت كثيرا فى ليلتى . ان موتهما كليهما حادث اليم يامابل ، فهلا يحزنك ؟

ـ انى حزينة جدا ، ولكن ليس لك ان تتوقع منى الاطالة فى القول وهذه حالك .

ـ لقد كنت معها عندما جادت بروحها ، فأثر فى المنظر اشد التأثير .

ـ اعرف ذلك ، وما كان ينبغى لمس برايت أن ترسل اليك فى تلك الساعة المتأخرة من الليل دون الناس جميعا لقد كنت اقرب الاصدقاء اليها

ـ ولكن ابقى برايت هذه لم يكن ينبغى لها ان ترسل اليك بوجه من الوجوه . لقد اساءت فيما فعلت ، وكان خليقا بها ان ترسل الى راجية ايفاد احدى الخادمتين اذا استطعت .

وكان سيبر قد جلس الى المائدة ليملأ لنفسه قدحا من الشاى ، فوضع الابريق وهب واقفا وهو يقول فى حدة :

ـ انظرى .. أسألك ان توليتى جميلا . لقد مات الابن والام كلاهما فلا تتحدثى عنهما ولا تذكرى هذا الموضوع .. بربك !



وخرج سيبر فاعتلى دراجته وانطلق بها صوب تيدبورو ، فالتقى عند طرف القرية بشاب يدعى بينوك ، وعلى ساعده شارة المتطوعين .

وهتف سيبر : ما هذا الذى بساعدك يا بينوك ؟

ـ لقد انتظمت فى سلك الجيش .

ـ ظننت ان طلبك رفض مرارا ؟

ـ ولكنهم يقبلون المتطوعين الآن على قاعدة « مشروع اللورد دربى » ويتسامحون فى الفحص الى ابعد الحدود فلا يرفضون احدا ما دام فيه نفس يتردد ، واليوم هو آخر فترة العمل بهذا المشروع .

وسرعان ما ادار سيبر دراجته نحو مكتب التطوع ، وبعد قليل خرج منه وعلى ساعده الشارة ، وفى جيبه مايقرب من ثلاثة شلنات .. مرتبه كنفر

وعاد الى بيته وفؤاده يكاد يثب من بين جنبيه سرورا وابتهاجا لما هو قد ادرك امنيته ، وها هو يسير الى الحرب حيث يبلى فى سبيل وطنه المحبوب كما يبلى سواه ، وحيث تحط فى غمراتها عن كاهله ما يثقله من فادح الاعباء .

ولكن مابل هى مابل دائما .. فهى لاتتفق معه فى شأن من الشئون ، وهى لاترى فى انخراط رجل له مثل مكانته الاجتماعية فى سلك الجيش كنفر بسيط غير مهزلة تقصر عن وصفها الكلمات ..

الفصل التاسع

قد يخيل الى الناس اذا ماعصفت بالعالم محنة شاملة ورزء عام ان الحياة الفردية قد انطوت فى ثنايا ذلك الرزء وغابت فى غماره ، فبات تفكير الفرد ومشاعره وقفا على هذا الحدث العام .

بيد ان الحياة قوية صلبة كالطبيعة سواء بسواء . فقد تختفى الطبيعة تحت أطباق كثيفة من الجليد ، ولكنها لاتزال فى جهد دائب وعمل متصل الى ان تبرز من تحت الثلوج فى خضرتها النامية الناضرة . وهكذا الحياة ، فانها تختفى وتسكن اذا ما غمرتها امواج الاصوات الشاملة ، ولكنها لاتلبث أن تبرز وهى اشد ما تكون قوة وعنفا .

دعى سيبر الى حمل السلاح بعد ثمانية اسابيع من تطوعه .. فى فبراير سنة ١٩١٦ ، وقد مضى عليه فى غمار الحرب قرابة السنتين ، ولكن كان مقدرا له ان يلقى اكبر احداث الحياة اثرا فى قرية « بينى جرين » .

وكان قد رحل الى فرنسا فى شهر يوليو التالى لتطوعه ، وأبت مابل ان تغير من نسق حياتها فى غيبته ، كما ابت أن تدعو احدى قريباتها للاقامة معها ، فهى تؤثر أن تستخدم « رفيقة » مأجورة اذا قضت بذلك الضرورة على الاستعانة بقريبة ترى لنفسها كفوا لها ، وتفسد كل شىء بتدخلها وفضولها .

غير انها كتبت اليه فى يوليو انها تجد شيئا من الوحشية

والانقباض ، واثباته بعزمها على استخدام « تلك البنت الصغيرة ايفى برانت » .

وطرب سيبر لهذا النبأ اشد الطرب ، وراقه ان تكون ايفى فى بيته وتمنى لو انها كانت هناك منذ زمن بعيد ، اذن لاستطاعت بما تفيض على كل مايحيط بها من طلاقة والشراق ان تبدد ما كان يقوم بينه وبين مابل من التنافر والخلاف .

ولكنه تبرم مع ذلك بقول مابل فى رسالتها « انها ليست من مستوانا طبعا ولكنها اشبه بسيدات الطبقة العليا ، وما اندم على انها ليست منهن حقا ، فليس من السهل اصدار الاوامر الى سيدة كريمة المحتد » .

ولما يحب سيبر هذه اللهجة الجافية المتكبرة ، فهو يؤمن بعما بين الطبقات الاجتماعية من التباين ، وهو يؤمن بتعذر المساواة المطلقة بين الناس جميعا ، ولكنه يؤمن كذلك بالديمقراطية الحقة التى لا تحتقر احدا .

ولكن هذه طريقة مابل ولا مفر من التسامح فيها !

وراح يسأل عن أحوال ايفى فى كل رسالة يكتبها دون ان تجيب مابل عن ذلك او تشير الى الفتاة بحرف .

وفى أوائل ديسمبر كتب الى مابل :

« لقد حدث مالم يكن بالحسبان ، وساحضر الى انجلترا بعد قليل من وصول هذه الرسالة اذ طلب الى فجأة الذهاب الى فرقة تدريب للضباط بالوطن للحصول على رتبة ضابط . ولكن لاينبغى لك ان تسرفى فى الاعجاب بى ، فما نلت هذه الترقية لانى بطل من الابطال ، وانما حدث ذلك لاننى فى فرقة يزهد جنودها فى مراتب الضباط ، ولان ضابط الفصيلة وكابتن الفرقة من زملائى فى التلمذة . وانى لاعرف مقدار ما يسرك من هذا النبأ ، فقد كنت دائما غير راضية عن التحاقى بالجيش كجندى بسيط . وارجو أن اصل الى الوطن فى اليوم الثالث ، واذهب الى معسكر التدريب فى اليوم الخامس » .

وقام بعد يومين الى انجلترا ، وفيما هو على وشك السفر وصل البريد وتسلم رسالة اليه كتبتها اليه مابل فى نفس الوقت الذى كتب اليها ، وقرأ فيها : « حدث امس ما اغضبنى على مس

برانت اشد الغضب . فقد تأخرت فى مخزن توريدات الصليب الاحمر ، فلما عدت وجدتها قد استباحت لنفسها تناول الشاى بدون ان تنتظرنى ، ورأيت فى هذا العمل تجاوزا لحدود اللياقة وصارحتها بذلك . وهذا هو شأن هذه الطبقة دائما ، فانهم لايلبثون ان يتعللوا عليك اذا ماعاملتهم فى شىء من الرفق واللين ، على أنى افهمتها جيدا انها ليست هنا لاصدار الاوامر كأنها اميرة من الأميرات » .

واختفى بشر سيبر ومرحه وسرت الى نفسه بوادر الهم والاكتئاب وعلم انه لن يجد امامه ما كان يتوقع من أسباب السرور والابتهاج .

***

دخل سيبر الى بيته هاتفا مهللا ، فبرزت ايفى من قاعة الطعام ، وجاءت الخادمتان سارة جنكنس او المنسطة وريبكا جنكنس او المنبسطة كما كان يدعوهما . فراح يصافحهن فى حرارة وشوق .

وبدت مابل فى اعلى السلم فهرع اليها مسرعا واخذ يدها قائلا : الا يريبك مابعلونى من اقذار الميدان ؟

وقالت مابل : لم يخطر ببالى انك تأتى الآن . كيف حالك يا مارك ؟ نعم وصلتنى الرسالة ، ولكنى لم اتوقع وصولك قبل المساء ، ويزعجنى جدا انا لم نعد لك شيئا « ساره » . ثمة شىء يحترق فى المطبخ . لا أدرى كيف تقفين هكذا ياريبكا على كثرة ما لديك من الاعمال ، واظن انك نسيت لبس قبعتك . مس برانت اوه .. قد ذهبت .

وعلم سيبر انها ترهق ايفى وتقسو عليها ، وتحقق ما ساوره من القلق عندما قرأ رسالتها فى طريقه الى انجلترا .

ولكنه كان اعد للامر عدته راجيا ان تكون الاحداث التى دعت الناس جميعا ووجهت تفكيرهم ونظرهم الى الاشياء توجيها جديدا ، قد الانت من قناة مابل . كان يعتزم ان يمضى فى استرضائها وتضييق شقة الخلف بينه وبينها الى ابعد ما يستطيع من الآماد فقال لها : سامنح اجازة يامابل بعد انتهائى من التدريب ، وأرى ان نرحل الى احد فنادق لندن حيث نقيم اياما نستمتع خلالها بحياة العاصمة ماشئنا ، وننفق فى هذا السبيل النقود بغير حساب ..

فاختفى ما كان يبدو عليها من الجمود والوجوم وهتفت : شد ما احب ذلك ! ولا شك انك فى اشد الحاجة الى الاستحمام ويزعجنى ان تحدث كل تلك الضجة عند وصولك ..

قال : لا بأس عليك من ذلك ..

وانطلق الى الحمام وهو يرفع عقيرته بنشيد من اناشيد الجنود .

❊ ❊ ❊

ولكن الايام الثلاثة التى قضاها فى بيته لم تكن لتقضى فى الانشاد والغناء ؛ فقد رأى من استبداد مابل بالفتاة ايفى ما اثار اسفه ونفوره ؛ فهى لا تنفك عن تمحل او هى الاعذار للومها وزجرها ، وهى تسرف فى القسوة عليها اسرافا بغيضا نابيا ؛ حتى لقد ذهب من محيا ايفى ذلك الاشراق والتألق ، وبدت فيه سمات الهم والاكتئاب .

وكثيرا ماهم سبير بالاعتراض على تلك المعاملة الخشنة الجافة ، ولكنه آثر الصمت اذ رأى الكلام لايجدى شيئا .

ثم رحل الى معسكر التدريب فى كامبردج ، وعاد منه فى مارس ملازما ثانيا ..

ولكنه لم يذهب مع مابل الى لندن كما اتفقا ، فقد كتبت اليه اثناء وجوده بالمعسكر انها ستشترك مع سيدات الضاحية فى تمثيل رواية لمساعدة الصليب الاحمر ، وان مايستلزمه ذلك من مواصلة التدريب والمران يحول دون سفرها .

ولم يغضب سبير لانها آثرت الاشتراك فى التمثيل على السفر معه ؛ فهو قديم العهد باساليب مابل واحوالها ؛ وما فكر فى ذلك السفر الا من اجلها . اما هو ، فانه يؤثر الطواف برياض قريته المحبوبة ومغانيها .

❊ ❊ ❊

وقد زار عقب عودته من التدريب ادارة الشركة فى تيدبورو ، فلم يلق من حفاوة زميليه القديمين مايغريه بمعاودة الزيارة ، وقال له القس فورشون : لا حاجة بك الى ازعاج نفسك بالوقوف على تفاصيل الاعمال هنا ؛ وما اخالك ترغب فى قضاء اجازتك فى العمل بعد الذى تجشمته وما سوف تتجشمه فى ميدان القتال . اليس كذلك يا توايننج ؟

قال توايننج : كلا .. اظنك تحب ذلك ايها الصديق القديم وان كان يسرنى كل السرور ان اراك فى الشركة .

ثم نظر الى ساعته وتحدث الى فورشون عن مقابلة « ذلك الرجل » فعلم سبير انهما قد تخلصا منه ولا يريدان ان يعود اليهما بحال من الاحوال .

ونهض للانصراف قائلا : حسنا ، لست اريد تأخيركما عن موعدكما ، وما جئت الا لاريكما بذلة الضباط الجديدة !

فاجاب توايننج : انى اكرر لك التهنئة ايها الصديق . ولكن اياك ان تتوهم ان ولدى هارولد سيؤدى لك التحية اذا التقيتما ، فانه سيرقى ضابطا كذلك .

وما كاد توايننج يتحول الى الحديث عن ولده حتى ذهبت خشونته وجفاؤه ، واستطرد فى صوت يفيض رقة وحنانا : انه ولد صالح بار ؛ وسيعود الى الوطن هذا الشهر للتدريب فى معسكر بورتموث لنيل رتبة الملازم الثانى .

وهناه سبير فصحبه الى الشارع وهز يده مودعا فى حرارة وهو يقول : شكرا ايها الصديق . شكرا جزيلا . اجل انه كل شىء لى فى هذا العالم .. ولدى هارولد ولست تدرى مايقض مضجعى من الوساوس والمخاوف من اجله ؛ ولكنه فى يدى الله وهو فتى صالح بار .

الا ما ابعد الفرق بين توايننج والد هارولد ، وبين توايننج فى صلاته العادية بالناس

❊ ❊ ❊

اوشكت اجازته على الانقضاء وبات متوقعا ان يؤمر بالسفر فى اى يوم .. ومابل منصرفة كل الانصراف الى الاستعداد لتمثيل تلك الرواية ، فكان ينفق وقته فى النزهة منفردا ، وزيارة آل فارجوس كلما اتيح له ذلك .

وكثيرا ماكان يتبسط فى الحديث مع ايفى اثناء غياب زوجته واصطحبها معه فى نزهاته مرة او مرتين ، وكانت مابل تغضب كلما فاجأتهما معا ! فيم تقول ! وهو يشتد فى الدفاع عن الفتاة والانتصار لها .

ولكنه لم يفطن الى مقدار تبرمها بتبسطه في معاملة ايفي حتى قالت له في آخر أسبوع من اجازته وقد اشتد بينهما الجدل في شأنها : لقد مللت هذه الفتاة على كل حال وضقت ذرعا بدفاعك عنها وتحيزك لها ، وسأتخلص منها .. غدا ..

قال : غدا ! كيف تفعلين ذلك ! انه عمل غير صالح ، وحسب المسكينة ما تلقى على يديك من العنت والارهاق .

- لا مناص من ذلك وسأدفع لها حسابها وأصرفها .

- ولكن .. ماعسى ان تقول اهلها ؟

- لست أحفل بما يقولون . واذا كنت تهتم كل هذا الاهتمام بشأن هذه الفتاة الفذة العظيمة فسأزعم اننا نؤثر ان نخلو الى بعضنا في الاسبوع الاخير من اجازتك .. ايقنعك هذا ؟

- ارجو ان يقنعهم هم ؛ ولكني أتمنى كثيرا لو لم تقدمي على هذا العمل .

ولكنها اقدمت عليه ، وفي اليوم التالي عادت ايفي الى اهلها .

وصدر الى سير الامر بالسفر ، فالتقى بتوابنتج في محطة تيلبورو . وقال توابنتج :

- ازاحل انت ؟ ان برايت العجوز غاضب اشد الغضب لطرد ابنته ايفي من بيتك على هذا النحو . كيف حدث ذلك ؟

وشق على سير ان يضطر الى الدفاع عن مسلك زوجته القاسي ولكنه قال في خجل واستحياء . أعتقد انه ليس ثمة من سبب سوى انه بدا لزوجتي احضار احدى قريباتها للعيش معها ..

وقال توابنتج وهو يحدق في وجهه : ولكن المفاجأة مع ذلك تبدو عجيبة ! اني لاعتقد انك كنت مع الفتاة على اتم المودة .. وقد رأيتكما معا منذ يومين في مشرب الشاي .. لا أحسبك رأيتني . ؟

- كلا .. لم ارك .. وقد كنا ننتظر زوجتي حتى تفرغ من احدى « بروفات » الرواية التي ستشترك في تمثيلها .

وقال توابنتج مفكرا : أكنت تنتظر زوجتك اذن .. ؟ ان هذا هو ما اعنيه يا صديقي . فمن العجب ان تطرد الفتاة فجأة على ما بينكما وبينها من المودة والالفة .. أزوجتك قادمة لتوديعك ؟

- كلا .. فانها متعبة قليلا .

فحدق فيه توابنتج من جديد تحديقا يدعو الى العجب ثم قال : حسنا .. الى الملتقى ايها الصديق .. الى الملتقى .

بلغ سير لندن فاعتزم المبيت باستراحة الضباط على كثب من محطة فيكتوريا .. وقد وصل في الساعة التاسعة مساء وهو لا يجد من نفسه ميلا الى تناول الطعام فأخذ يتمشى الى حديقة سان جيمس ثم عاد الى المحطة وقصد الى فنائها لابتياع احدى الصحف ، وأبصر مركبة تخرج من المحطة فتنحى جانبا واذا به يرى فيها امرأتين احداهما لونا !

واشارت الى الحوذي بالوقوف وركض سير حتى لحق بها .

- لونا !

- ماركو !

وقالت : اني اريد الاسراع الى بوستون لادرك احد القطارات القائمة ومعي والدة تونى .

وكان سير يكاتبها بانتظام طيلة وجوده بفرنسا فقال وقد رأى بوجهها شحوبا واكتئابا : انني عائد الى فرنسا . ولكن انت يا لونا ؟ لقد كنت اظنك هناك . ماذا حدث ؟ هل وقع مكروه ؟

اجابت : أواه يا ماركو .. لقد قتل تونى .

- لونا ...

قتل تونى ! ابتعدت المركبة وهو جامد في مكانه يفكر في هذه الكلمة الرهيبة وفيما تنطوي عليه من دلالات واحتمالات حتى رأى انه يعترض الطريق فسار مترنحا الى السور ووقف مستندا اليه وهو غارق في التفكير .

ولقد اخبرته لونا فيما بعد انه اصيب وهو يتقدم جنوده ويستحثهم على الهجوم والاقدام . فنقلوه الى بولونى وهم يائسون من نجاته . بيد انه كان نجيبا كدأبه في كل شيء .

ولم تدركه لونا الا حين اشرف على الموت وقد احتبس لسانه فلم يعد يستطيع النطق . بيد انه كان يتكلم الى ما قبل وصولها بقليل وترك رسالة مع الممرضة .

واستطردت لونا قائلة : اخطأت الممرضة فاعطتني الرسالة مع انها لم تكن لي . وكان تونى يراقبنا فبدت في عينيه تلك النظرة الساخرة التي تعرفها . واني لمسرورة اشد السرور ياماركو اذ اتيح له ان يقضي نحبه مسرورا راضيا بما كلفتني تلك الرسالة التي كتبها الى احدى خليلاته من الألم والعذاب !

وعاد سير الى فرنسا ، وقضى في غمار المعارك الدامية سبعة اشهر . ولكن حياة الحرب انقضت باصابته في ذراعه وساقه فأعيد الى انجلترا واعفى من مواصلة الخدمة العسكرية .

القسم الرابع

ايفي ـ مابل ـ نونا

الفصل الاول

قال هابجود المحامي الثرثار الذي رايناه في اول القصة يتحدث الى صديق له ولسبر ثال هابجود لنفس ذلك الصديق

ـ انك لتعلم انني لست بالرجل الرقيق العاطفة ، المرهف الحس ، الذي تستنزف دمعه أخف المآسي . بيد انني لا اراد ارى سبير وقد الح عليه المرض والهزال ، وارتسمت على وجهه آيات الكآبة والالم ، وراح يدب على عصاه في جهد وعناء ، حتى اشعر .. ولكن اليك القصة بحذافيرها .

اننا الآن في ابريل سنة ١٩١٨ ، وقد انقضى على هذه الحرب المشئومة ما يقرب من اربع سنوات . واصيب صديقنا القديم سبير منذ خمسة اشهر اى في نوفمبر . اصيب في كتفه ، واصيب كذلك في ساقه . واما الكتف فكانت اصابتها خفيفة ليست بذات بال ، ولكن اصابة الساق كانت خطيرة حدت بالاطباء الى التفكير في بتر ساق صديقنا التاعس ، ولكنهم عدلوا عن هذا الراى ولله الحمد ، وسرحوه من الجيش واعادوه الى الوطن ، وان كان لا يستطيع الآن مس الارض بقدمه العليلة في غير الم شديد ، وسيلازمه العرج طيلة حياته .

كانت تلك حاله عندما لقيته في اوائل فبراير ، وكنت قد ذهبت الى تيدبورو في بعض المهام ، فعرجت على الشركة للسؤال عنه ، ولقد القيت فورشون وتوابنج ينفران من الحديث عنه اشد النفور ، ويزعمان ان اخباره انقطعت عنهما منذ زمن بعيد فلا يكادان يعرفان من امره كثيرا ولا قليلا ، ولا يعلمان متى تمكنه حالته من العودة الى عمله بالشركة .

وقصدت الى قرية « بيني جرين » بعد الظهر لزيارته ، فلقيته في الطريق يدب على عصويه ويحاول تمرين ساقه العليلة ، وما كان اعظم سروره بلقائي وحفاوته بي .

وراح يتحدث كالسيل المنحدر فقلت له :

ـ ان المرء ليخيل اليه انك لم تلق مخلوقا قط منذ شهر كامل يا سبير !

اجاب ضاحكا : انني كما ترى مشدود الى هاتين العصوين كما يشد المرء الى صارية فلا يملك التحول عن مكانه . ولا ريب انك ستبقى هنا حتى تتناول الطعام ؟

اجبت : لهذا قد جئت .

فاستخفه السرور ولكنه لم يلبث ان قال : ان مابل ستسر بذلك دون شك . فانها لا تكاد ترى أحدا سواى وانا أدب في انحاء البيت ضعيفا عاجزا .

قلت : لا ريب انها لا تقف الآن عند حد في المفاخرة بك ورفعك الى مصاف الابطال الخالدين .

اجاب في شيء من الوجوم : اظن ذلك !

❋ ❋ ❋

ولم تكن مابل في المنزل عندما دخلناه ، واشار سبير الى احدى الحجرات قائلا في شيء من الحسرة : هذه هي « مقرى » . فيها اجلس ، وانام ، واقوم احيانا ببعض ما استطيعه من الاعمال ..

قلت : ولكن لك غرفة اخرى بالطابق الثاني تؤثرها على كل مكان سواها فيما اذكر .

اجاب متلهفا : هو ذاك .. ولكنى لا استطيع طبعا صعود السلم ..

ـ لا ريب انه يسرك ان تقضي بها بعض الوقت .. وساحملك اليها بمعونة الخادمتين ..

وصحت بالخادمتين فاقبلتا ضاحكتين مبتهجتين بما توشكان عمله لارضاء سيدهما المحبوب . فاجلسناه في مقعد متحرك ورفعناه فيما بيننا واخذنا نرقى به السلم . بيد اننا لم نكد نعتلي درجات معدودات حتى اقبلت زوجته مابل من الخارج وصاحت في صوت جاف غليظ : ما هذا ؟ الم اقل لك يا مارك ان هذا المجهود سيؤدى الى صحتك ويؤخر شفاءك ؟ هيا عودوا .

واشار لنا سبير بالنزول وفي محياه سمات الم عميق مكظوم .. فانزلناه .. ولم تكد مابل تراني حتى فارقها جفاؤها وغلظتها .. وقالت في صوت يسيل رقة وعذوبة :

ـ مستر هابجود ؟ انى لمسرورة اشد السرور بهذه الزيارة .. ولا ريب انك ستبقى حتى تتناول الطعام معنا .

ولعلك تذكر انني قلت لك بأني ملت الى هذه السيدة ، ولكني شعرت حينذاك بنفور شديد منها ، وبدا لي خلال الحديث الذي دار بيننا على الطعام انها تستبد بصديقنا التاعس اشد الاستبداد ، ولا تهتم قط بشيء مما يألفه ويحبه ، وان المسكين يحتمل من الآلام ما لا يحتمل ...

الفصل الثاني

واستطرد هابجود قائلا : حدث هذا منذ شهرين ، ثم ذهبت الى تيدبورو الاسبوع الماضي ، فقصدت الى ادارة الشركة وانا على ثقة من ان سيبر عوفي وباشر اعماله ، غير اني لم اجده هناك ، وبدا لي ان كثيرا من الخفاء والغموض يحيط بسبب غيابه ، فقد سألت احد الكتبة : هل مستر سيبر بمكتبه ؟

واجابني الرجل وهو يحدجني بنظرة مريبة : كلا .. مستر سيبر ليس هنا .

ـ الا يزال عاجزا عن العمل ؟

ـ ان مستر سيبر لا يأتي الى الشركة في الوقت الحاضر يا سيدي ..

ـ لا يأتي الى الشركة ؟ ولكنه ليس مريضا ؟

ـ اظن انه ليس مريضا . ولكنه لا يأتي الى المكتب ، ولعلك تحب مقابلة احد مديري الشركة ؟

ورحت انظر الى الكاتب وانا لا افقه قوله ، واذا بشيخ عجوز يسمى برايت يعمل بالشركة كمقدم عمال أو شيء من هذا القبيل يهبط السلم ، وكنت اعرفه معرفة سطحية فحييته بطريقتي المرحة المألوفة قائلا : هالو مستر برايت ! طاب صباحك .. اني اسأل عن مستر سيبر ؟

ولاح لي أن الرجل يكاد يتمزق من الغيظ ويهم بأن يبطش بي ! ولكنه لم يلبث ان قال في حنق وغضب : ليس هذا بالمكان الذي تسأل فيه عن مستر سيبر يا سيدي . ليس هذا ..

ثم توقف عن الكلام فجأة وولاني ظهره ولحق به الكاتب ، فرأيت

الا مناص لي من الذهاب الى قرية بيشيجرين ومقابلة سيبر لاستجلاء هذه الاحاجي والالغاز .

ولما بلغت البيت رأيت حوله من مظاهر الترك والاهمال ما رابني ، ودققت الباب مرة فلم يجبني أحد ، فدققته ثانية وانا اتوقع أن تفتح لي احدى الخادمتين . على اني كنت اصعق دهشة وعجبا عندما فتحت لي سيدة لا تشبه الخادمات ، وهي تحمل طفلا رضيعا .

كانت وافرة الحسن ، بارعة الجمال ، لولا ما يرتسم على محياها من آيات الحزن والأسى ولا ادري لماذا وقر في نفسي لاول وهلة انها والدة ذلك الرضيع الذي تحمله ، ولا ادري لماذا نظرت الى اصبعها ولكني لم اجد به خاتم الزواج .

وسألتني في تردد ووجوم : نعم ؟

فتبادر الى ذهني أن سيبر قد رحل عن المنزل وحل به قوم آخرون

ـ لقد جئت لمقابلة مستر سيبر ، فهل رحل ؟

فاخذت تنظر الي في خوف وارتياب ثم اجابت : كلا .. ان مستر سيبر هنا . أانت من اصدقائه ؟

قلت : اعتقد انني كنت كذلك دائما ، واسمي هابجود

ولكنها لم تبتسم حتى خرت في حزنها العميق الصامت ؟ وقالت : لعل الاجمل بك أن تدخل .

وكان في صوتها من دلائل الاسى مثل ما في محياها ، فدخلت خلفها وانا اتساءل عما ينتظرني في ذلك البيت من المفاجآت . أترى سيبر مريضا مدنفا ؟ أم ترى زوجته هي المشرفة على الموت ؟! أم سقطت على البيت احدى قذائف غارة جوية فقضت على جميع من به ..

بدأ الجزع يتمشى في صدري عندما سمعت سيبر يهتف من اعلى السلم : ما الخبر يا ايفي ؟

وما رآني حتى صاح مبتهجا : هالو هابجود !

وهبط السلم متوكئا على عصاه ، وصافحته قائلا : كيف حالك ايها الصديق ؟ أرى انك تستطيع الآن صعود السلم . وقد كنت في تيدبورو فخطر لي أن أزورك .

قال : انه لفضل كبير منك . هل سألت عني في الشركة ؟

ـ لقد لقيت هناك كاتبا أخبرني انك لم تذهب اليوم فاتيت الى هنـا . .

وقال وهو يفكر : انى لمسرور بمجيئك . ستمكث معنا قليلا بلا ريب .

ثم سار في الردهة قليلا وصاح بالفتاة التي كانت قد اختفت : هل تستطيعين يا ايفي اعداد شيء من الطعام لمستر هابجود ؟

وجلسـنا واجمين ريثما يعد الطعام ، وقد شعرت ان البيت مقفر من سكانه فلا صوت ولا حركة ، وان سيبر يحاول عبثا مغالبة هم قبض به جوانحه . واخيرا أعلنت الفتاة ان الطعام قد عبيء ، فعجبت للتحـول الذي طرا على نظام البيت ، وزاد عجبي عنـدما نزلنا الى غرفة المائدة فرايت الطعام معدا لشخصين اثنين .

وقام سيبر الى الغرفة الملاصقة فسمعت حوارا بينه وبين الفتاة ، وابي الا ان تجلس معنا فجاءت بطفلها ، وقال سيبر في صوته الرقيق الهادىء : مس برايت ، وأبوها موظف بالشركة ولعلك رايته ؟

ولست ادري كيف اجبـته ، ولكنني ذكرت في تلك اللحظة منذ ذلك الشيخ وهو يتلظى غضبا حين لقيته قبـل ذلك بساعتين ، وادركت سبب غضبه واهتياجه عندما سالته عن سيبر .

بيد ان سيبر مضى في حديثه قائلا : لقـد اشتغلت مس برايت كرفيقة لزوجتي حينـا من الزمن . وهي تقيم الآن هنا من أجـل قـريب . شفي ولذلك على الاريكة يا ايفي ، فاني احب ان تتـوطد اواصر الصداقة واتود بينك وبين هابجود ؛ فانه صديقي منذ كنا بالمدرسة .

على اننا ظللنا مع ذلك نشعر بالكآبة والانقباض وبدا كل حديث فاترا نابيا . واخذت الفتاة طفلها وغادرت الغرفة ، فأشعل سيبر سيجارا وبعد دقيقتين قال : هابجود . . اى شيء يحملني على أن اشرح لك جميع ما ترى أو ما الذى يضطرني الى ذلك ؟

قلت في شيء من الحدة : ومن ذا الذي سالك شيئا من ذلك ؟ انى لم القِ عليك سؤالا قط .

قال : اعرف ذلك . ولكنك تتساءل دون ريب في نفسك عما ترى من التحول والتبدل ، وعما يكتنفك من بواعث الريبة والشك ، واني لأعرف ايضا انه لا مناص لي من الاجابة عن هذه الاسئلة وجلاء تلك الاغوار ، اردت ام لم ارد . على انى لا ادرى في الحق لماذا اضطر

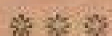
الى تادية حساب عن اعمالي وتصرفاتي الك او لغيرك من الناس ، فان هذا بيتي دون سواي ، ولي ان أفعل فيه ما اشاء بغير حساب !

ولكني مع ذلك لم أقترف إثما ، وانما افعل الآن شيئا هو خير ما فعلت طوال حياتي على الاطلاق ، ولكن الناس جميعا يرون من حقهم ان يسألوا فأجيب !

اني في مرمى الحاقر اتحدى عرفا جرى بين الناس مجرى القانون ، واخرج على تقليد نزل من نفوسهم منزلة الشريعة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها وقد غدوت لهذا السبب منبوذا اجتماعيا يتنكر له الاصدقاء . وتغلق في وجهه الابواب ولا يمر الناس ببيته الا مر المجانب المحاذر ، ولك ان تعجب ما شاء لك العجب حين أقول انك أول رجل اجتاز اعتاب بيتي منذ شهور !

لم اقترف اثما ، ولكن الناس لا يفعلون بحكم العرف والتقاليد ما فعلت وان كان الصواب . وقد انتهكت حرمة العرف والتقاليد فصرت في نظر الناس اثيما بلا اثم . . جانيا في غير جريرة ، وهم يعدلون عني كما يعدلون عن المجذوم وقاطع الطريق !

وراح سيبر يروى لي القصة ، وها هي . . .



اقامت هذه الفتاة ـ ايفي برايت ـ ببيته حينا من الزمن كرفيقة لزوجته اثناء غيبته بفرنسا ، وكان له بعض الشان في ذلك اذ كان راها بالشركة مع والدها وشغف بها شغفا شديدا كما يشغف الاخ باخته الصغيرة الرقيقة ؛ وتوسط في الحاقها ببيت سيدة مسنة من اصدقائه ، فلما قضت السيدة نحبها احضرتها زوجته للاقامة معه في اكتوبر سنة ١٩١٥ .

ثم برمت بها زوجته وطردتها في مارس سنة ١٩١٦ ، اى منذ سنة تقريبا ، وكان سيبر عندما طردتها موجودا بالقرية باجازة امتدت ثلاثة اسابيع ، وارجو ان تذكر هذه الحقيقة جيدا لان لها شانا عظيما فيما تلا ذلك من الحوادث .

طردت الفتاة ايفي ، والتحقت بعمل آخر في بورتموث او في جهة قريبة منها فيما يظن سيبر . ثم جرح سيبر في ميدان القتال وسرح من الجيش واعيد الى انجلترا ، وعاد الى متابعة الحياة مع زوجته في فبراير سنة ١٩١٧ فيما سبق ان وصفته لك من التنافر والاختلاف .

وبينما كانا يتناولان طعام الافطار بعد زيارتي الاولى باسبوع ، وزوجته تتلو رسالة وصلتها ، مدت مابل اليه الرسالة قائلة في سخرية : ها ! ها هي فتاتك العجيبة مستر برايت ! الم اقل لك انها ليست على ما تصف من الطهر والنقاء ؟ ما رايك في هذا ؟ ها !

وقرا سيبر الرسالة فراعه ما يتجلى بين سطورها من شقاء ابقى وعذابها ، وكانت تقول انها وضعت طفلا في شهر ديسمبر — ولعلك تذكر انها طردت من بيت سيبر قبل ذلك التاريخ بتسعة اشهر — وانها تقيم مع طفلها في مسكن استاجرته ، ولكنها قد استردت الآن شيئا من قوتها وفي وسعها الاشتغال . وقالت كذلك ان كل ما معها من النقود قد نفد ، وسدت في وجهها جميع الابواب . فالناس يابون استخدامها ويتحرجون من الاتصال بها ، وابوها يابى عودتها الى بيته الا اذا تخلت عن الطفل وعهدت به الى مرضعة في مكان بعيد ، ولكنها لا تستطيع ذلك ولا تقوى على فراق ولدها .

وقالت الفتاة في رسالتها : « وهانا الجا الى رحمتك وكرمك يا مستر سيبر ، واناشدك الله ان تؤويني وطفلي . اني لاعلم اني فتاة شريرة اثمة ، وسأمضي نفسي في القيام بكل ما ترين تكليفي به من الاعمال دون ان افتح فمي بكلمة واحدة ، وحسبي من العيش لقمة تسد رمقي وتحفظ طفلي ، ووجار دون وجار الكلب في ركن منعزل من الحديقة .. »

تاثر سيبر اشد التاثر ، وحزت في قلبه كلمات الفتاة .. فسال زوجته : وماذا ترين ان تفعلي ؟

فصاحت مابل : ماذا ارى ان افعل ؟ وهل بك من حاجة الى سؤالي عما ارى أن افعل في مثل هذه الحالة ؟.

وقال سيبر : اني ارى دون ريب أن تقبل الفتاة التاعسة .

وغلت مراجل الغضب في صدر مابل فراحت تتحدث عن الفتاة بلهجة مهينة قاسية ولكن هذا لم يزد سيبر الا تقديرا لما تلقى الفتاة أينما ولت وجهها من عنت وارهاق .

ولقد حدثني سيبر عما خالجه أمام اصرار زوجته فقال : شعرت ان للفتاة علينا حقا فهي مخلوق آدمي الح عليه الشقاء وهاضه الالم فلجا الينا ولاذ بنا .. فما كان لنا أن نتنكر لها ونغلق بابنا في وجهها .. ثم انها كانت تعيش في بيتنا في وقت من الاوقات فلها علينا حق الصديق على صديقه .. ولم يكن يجمل بنا أن نعرض عن استغاثتها .. على انني يا هابجود لم أغضب لمسلك مابل .. ولم

افضل مما يحدو بها اليه من البواعث والاسباب ، وان آثرت ان اغضب العالم اجمع على التخلي عن فتاة تاعسة تثقل كاهلها المحن والارزاء .

وفي اليوم التالي اقبلت الفتاة بنفسها مع طفلها .. وكانت قد ذهبت الى ابيها تستعطفه وتتوسل اليه ولكنه ابى قبولها في بيته الا اذا تخلت عن طفلها وباحت له باسم ابيه .. ولم تكن الفتاة لتفعل شيئا مما يطلبه ويصر عليه ! فقصدت الى بيت سيبر ، وقطعت المسافة من بين فيدبورو الى القرية على قدميها .. فبلغتها وقد شفها التعب وكاد يقضي عليها الاعياء .

وصارح سيبر زوجته بانه قد حزم رايه على ايواء الفتاة ، فسالته مابل :

— امصر انت على ذلك ؟

قال : اني آسف اشد الاسف يا مابل ، ولكني مصر كل الاصرار ..

قالت : حسنا . ما ينبغي لي ان ابقى بالبيت اذا حلت هي به ، وسارحل في الحال الى بيت ابي .. وليس لك ان تتوقع أن تبقى معك الخادمتان اذا عاشرت هذه المراة . وسادفع الآن لهما حسابهما واصرفهما . فهلا تزال مصرا ؟

— مابل .. مابل .. لست تعلمين ما يكلفني هذا من عذاب قاتل ، ولكن الفتاة تلتمس الحياة لنفسها ولطفلها ، ولا بد لنا من ايوائها ..

وذهب مابل الى داخل المنزل حيث صرفت الخادمتين وتاهبت للرحيل ثم عادت قائلة : اتقول ان لهذه الفتاة علينا حقا ؟

قال : اني ... اني ...

— حسنا ! اذا اردت رايي ، فاكبر ظني ان هذا الحق عليك وحدك !

ثم غادرت المنزل ...



والآن قد انتهت يا صاح قصة سيبر وان لم تنته آثارها وعواقبها ، فقد غدا كما قال منبوذا اجتماعيا يغلق في وجهه كل باب ، وتتنكب سبيله المعارف والاصدقاء . كما كتب اليه شريكاه يطلبان اليه الاستقالة ، فلما ابى ذلك اعلناه ان ذهابه الى الشركة مع

هذه الفضيحة القائمة حوله لا يتفق مع ما لها من الصلات بالهيئات الدينية .

ولقد سألته عما يعتزم عمله للافلات من هذا المأزق الحرج ، فأجاب بانه كتب الى كثير من المؤسسات الخيرية ، ونشر اعلانات بمختلف الصحف لعل أحدا من ذوى البر والرحمة يتقدم لاستخدام الفتاة . على انى لا اعتقد ان هذه الجهود تجديه نفعا فان المؤسسات الخيرية وذوى البر والرحمة لا يقدمون على ايواء أم غير ذات بعل ما دامت تتشبث بوليدها ، وخاصة حين يرونها تعيش فى كنف الرجل المتهم باغرائها واستدراجها الى مهاوى الاثم والعار . ولا مناص لنا من التسليم بان القرائن كلها ضد صديقنا سبير ، اذ طردت الفتاة من بيته قبل أن تضع حملها بتسعة أشهر كاملة ، كما ان اباها يعتقد انها لم تلجأ الى حماه الا لانه هو المسئول عما صارت اليه .

وسألته عما يصير اليه امره مع زوجته فقال ان ما بينهما من الخلاف عارض لا يلبث ان يزول متى وفق الى عمل للفتاة ، واطلعنى على رسالة من مابل تطلب اليه فيها أن يهيء لها مسكنا صالحا لوصل ما انقطع من حياتهما الزوجية . ولكنى أصارحك أيها الصديق أن الذئب اهتدى المخلوقات الى رائحة الذئاب ، وانى كمحام قد شممت بين سطور تلك الرسالة رائحة محام ، وكثيرا ما أمليت مثلها .

الفصل الثالث

وتحدث صاحبنا هابجود الى ذلك الصديق القديم مرة أخرى فى احد ايام شهر مايو ، اى بعد الحديث السابق بشهر ، فقال : ان المحن تطبق الآن على صديقنا سبير من كل جانب ، والارزاء تأخذه من يمين ومن شمال . وقد فارقته هنا فى لندن منذ ساعتين وانا أشد ما أكون اشفاقا عليه وقلقا .

وكنت قد ذهبت مع زوجتى الى برايتون لقضاء السبت والاحد والاثنين بغية الراحة والاستجمام ، وجلسنا على الشاطىء فراحت زوجتى تتصفح الوجوه وتدلى بما يعن لها من الملاحظات ، وانا منصرف عن هذا اللغو الى قراءة احدى الصحف .

ثم قالت : انظر الى ذلك الرجل يا هابجود . ان وجهه يثير الاهتمام !

واجبتها دون أن أرفع بصرى عن الصحيفة : ان لى وجها يثير الاهتمام كذلك ، فانظرى الى .

قالت : ولكنه يحدق فى الفضاء تحديقا عجيبا ..

ونظرت حيث اشارت فكدت أقفز دهشة وعجبا اذ رأيت صديقنا سبير مستغرقا فى مهامه التفكير ، وقد ارتسمت على محياه دلائل اليأس والقنوط ، ونم مظهره كله على الضعف والتخاذل ، وهرعت اليه فاستخفه لمرآى الجذل والابتهاج ، وبعد ان قدمته الى زوجتى خلونا ببعضنا ، وسألته عما جاء به الى برايتون فقال : لقد توالت الاحداث والنكبات فشعرت بحاجة ملحة الى شىء من الراحة والهدوء ، واعتزمت أن اقضى هنا آخر الاسبوع . اما ايفى فقد سرها هذا العزم اعظم السرور ، وما هى بغافلة عما ألقى فى سبيل ايوائها من العنت والارهاق ، وعما اتجشم فى القيام بهذا الواجب من ضروب القسوة والعسف . ولكنها يين أن تقضى على هذه الحال ، أو تغادر بيتى فتموت جوعا هى وطفلها اذ لا ملجأ لها سواه . والمسكينة لا تدخر وسعا فى الترويح عنى والافتنان فى توفير اسباب الدعة لى ، ولا تكف عن اظهار شكرها وتقديرها لما فعلت بمختلف الاساليب التى يصل اليها فكرها . وقد طلبت الى ان أجيئها بقليل من حامض الاوكساليك لتنظيف قبعتى القش اذ رأتها رثة لا تصلح أن ابدو بها بين الناس ، فلما عدت اليها بما طلبت استقبلتنى مداعبة وسألتنى هل أستطيع ان اعرف بالحدس والتخمين ما فقد منى ، وبعد طول البحث والتنقيب انبأتها انها علبة السجاير ، فأخرجتها من خلف ساعة الحائط بغرفتى وقالت انها مهتمة أشد الاهتمام بحفظ كل ما يتعلق بى .. وانه يجب ان أبحث خلف تلك الساعة اذا لم اجد شيئا من الاشياء التى احرص عليها .

لم عكفت على تنظيف القبعة فأتلفتها حتى لم تعد تصلح لشىء ، ولكنى لم أدعها ايلامها فلبستها ، وكان اول ما فعلت عند وصولى الى هنا أن طوحت بها الى البحر ، وابتعت القبعة التى تراها ، وسأزعم عندما اعود غدا أن الريح قد أطارتها .



كان هذا فى الصباح . وفى الساعة الثالثة بعد الظهر قصدت الى الفندق الذى ينزل به للقائه ، فألفيته واقفا بالبهو وهو يحملق فى ورقتين بيده كأنه يرى شبحا من الاشباح وما كانت هاتان الورقتان الا اعلانات قضية الطلاق التى رفعتها عليه مابل متهمة اياه بأنه على صلات غير شريفة بالفتاة ايفى .

وبعد لأي استطعت ان اصعد به الى غرفته ، ورحت اقول له ان عليه ان يذهب الى مكتب تسجيل دعاوى الطلاق بلنــدن في مدى ثمانية ايام ليثبت أمامه انكاره للتهمة واعتزامه دحضها والدفاع عن نفسه . واوضحت له كذلك ان الذي حمل اليه هذه الاعلانات قد ذهب قبل ذلك الى بيته في بيتي جرين واعلن الفتاة ايضا اليوم او امس دون ريب ، وان عليهـا كذلك ان تذهب الى مكتب التسجيل لتثبت اعتراضها على التهمة وعزمها على الدفاع عن نفسها .

ولكنه كان يهذي هذيان المحموم ، ولا يفتا يغمغم وهو يصر بأسنانه :

ـ انا مفسد ! فاسق ! امابل هي التي تتهمني بهذا ؟! زوجتي ! اتراني ممن يأتون مثل هذا الاثم السافل الفظيع ! انا ! مفســد ! فاسق !

وبعد جهد شاق استطعت حمله على الانصات لاقوالي ، وبينت له انني اسر اشد السرور بتولي الدفاع عنه ، ولكنه ابدى رغبته في السفر الى لندن في الحال لاثبات معارضته امام مكتب التسجيل ، واصر على ان يتولى هو الدفاع عن نفســه .

ولم يكن في حالة تمكنه من التفكير في شيء ، فتوليت اعــداد حقيبته ودفع حسابه بالفندق ، ثم اخذته الى الفندق الذي كنا ننزل به وعدنا جميعا الى لندن وزوجتي لا تدخر وسعا في تسكين جاشه وتهدئة ثورته .

وذهبنا صباح اليوم الى مكتب التسجيل حيث أثبتنا معارضته ، وبينما كنا واقفين على الرصيف ننتظر سيارة تقلنا الى المحطـة لنسافر الى العزبة ، دنا منه رجل مديد القامة قائلا : مســتر سيبر ! هل تسمح لي بمحادثتك على انفراد دقيقة واحدة ؟

وابتعدا قليلا فاخذت الهي بالنظر الى الطريق ، ولكني انتبهت الا من بي شيء مرا سريعا ، فرايت سيبر يندفع الى سيارة وقفت امامنا وهو يعثر بعصاه ، وذلك الرجل يعينه على الجلوس في السيارة وياخذ مكانه بجانبه .

وهرعت اليه فاذا بوجهه قد كساه شحوب هائل مريع لا عهد لي بمثله في وجه احد من الاحياء ، وهتفت به : أراحل انت ؟ هل آتي معك ؟

اجاب في صوت غليظ اجش وهو يصر باسنانه ليمنع نفسه من الصياح :

ـ اذا كنت تحبني يا هابجود فدعني وحدي . ان هذا الرجل من تيدبورو ، ونحن راحلان معا .

قلت : سيبر ..

قال : دعني وحدي ! دعني وحدي !

وانطلقت السيارة . ولكني قد عقدت العزم على السفر اليه غدا ، فاني لفي اشد الخوف عليه .

الفصل الرابع

كان ذلك الرجل قد انبأ سيبر عندما انتحى به جانبا انه مطلوب امام قاضي التحقيق في الغد اذ وجدت الفتاة التي تعيش معه وطلقها ببيته ميتين ، ولم يشأ ان يزيد على ذلك سوى انه ضابط قاضي التحقيق ، وان الفتاة ماتت مسمومة بحامض الاوكساليك .

ووقع هذا النبأ الهائل على سيبر وقع الصاعقة ، وقضى ليله يجوب غرف بيته كالمجنون السليب ، وهو لا يكاد يشعر بشيء .

وفي صباح اليوم التالي استقل مركبة وقصد الى المحكمة ، فما رأته الجماهير المحتشدة في فنائها حتى قال بعضهم : « ها هو ! » ، واخذوا عليه الطريق ، وراحوا يحدقون فيه وقد تجلى في وجوههم الحقد والغضب دون ان يعرف لذلك سببا .

وقد هموا بالفتك به لولا ان اقبل ضـابط التحقيق وبعض الشرطة ففرقوهم من حوله ، واحاطوا به حتى دخل المحكمة .

كانت المحكمة غاصة بالنظارة ، وقد وضعت في صدر القـاعة منصة عالية جلس الى جانبها المحلفون ، وجلس الى الجانب الآخر رجلان يتحدثان همسا الى رجل ثالث بين كتفيه حدبة بارزة . اما هذان الرجلان ، فهما برايت والد ايفي ، وتوابنتيج صديقه الحميم .

ثم دخل من باب خلف المنصة رجل طويل بدين واخذ مكانه ، فتهامس الحاضرون قائلين : « قاضي التحقيق » وهتف احدهم : « صمتا ! »

ووضع القاضى منظاره فوق انفه وهو يقول : هل حضر الشاهد سيبر ..؟

أجاب الضابط : نعم يا سيدى .

ودفع بعض الناس سيبر فوقف ، وساله القاضى : هل وكلت عنك احداً ؟

ودهش سيبر لهذا السؤال وقال : ولماذا اوكل احدا ..؟

قال القاضى فى شىء من السخرية : ستعرف السبب عاجلا .

وضحك الاحدب ضحكا عاليا وقال شيئا لتوايننج .. ثم نهض رجل قائلا :

ـ انا حاضر عن مستر سيبر .

اجفل سيبر دهشة وذهولا .. مستر سيبر ! مابال !

وهب الاحدب واقفا وهو يقول : وانا حاضر عن مستر برايت والد المتوفاة .

وبعد ان اقسم المحلفون اليمين قال القاضى : ارى ان نبدا بقضية وفاة الطفل .. وستسمعون الآن الشهود .



ومن الخير ان نعود الآن الى ما رواه هابجود الثرثار لصديقه فى اليوم التالى :

ـ لك ان تتصور دهشتى وعجبى عندما ذهبت الى بيت سيبر فعلمت انه عند قاضى التحقيق .. كما علمت ان الفتاة ابقى وطفلها وجدا ميتين ببيته اثناء وجوده فى بريتون .

واسرعت من فورى الى المحكمة وقد اوشكت على الفراغ من تحقيق حادث موت الطفل . ورايت ذلك المحامى الاحدب الجهنمى يسال طبيبا انتهى من اداء شهادته : لحظة واحدة يا دكتور من فضلك . هل تستطيع ان تخبرنى بعمر الطفل على وجه التقريب ؟

واجابه الطبيب ان عمره يتراوح بين اربعة اشهر وخمسة ، وراح الاحدب ينظر الى سيبر متعمدا وهو يقول : خمسة اشهر ؟ خمسة اشهر ؟ اى انه ولد فى ديسمبر ؟ اشكرك يا دكتور .. هذا يكفى !

وجلس الاحدب وقد القى بذور الشك فى صدور القاضى والمحلفين والنظارة جميعا !



اصدر قاضى التحقيق قراره فى حادث الطفل بانه « مات اختناقا بطريق الخطأ » ثم انتقل الى حادث موت الفتاة ، فاحتبست الانفاس ، واشرأبت الاعناق . وبعد ان لخص قاضى التحقيق وقائع الدعوى جلس فى مقعده جامدا كأنه تمثال بوذا .

وكان ذلك الثعبان الارقط المدعو توايننج لا يتوانى عن نفث سمومه فى اذن المحامى الاحدب ، وهذا الاحدب الملعون لا يدخر وسعا فى تضييق الخناق على سيبر واثبات انه والد الطفل ، وانه دفع الفتاة الى الانتحار دفعا عندما ملها ليتخلص منها ! وصديقنا سيبر قد سحقته الكارثة سحقا فلم يعد يملك غير كلمة « انظر هنا » يرددها كلما اشتد حبل الاتهام على عنقه ، ولو وجد الى الكلام سبيلا لاسكته قاضى التحقيق .

وانفذت اليه ورقة مع احد الشرطة انبئه بوجودى بالمحكمة وانصح له بان يطلب حضورى عنه ولكنه مزق الورقة وداسها بقدمه فاضطررت الى السكوت على مضض .

سمعوا شهادة الشرطة والطبيب ومن اليهم ، ثم دعى برايت الشيخ الى الشهادة فوقف بقامته المديدة الضخمة وقد قوس ظهره الاسى . وبعد ان اجاب عن الاسئلة المعتادة وقف الاحدب وساله هل كانت ابنته ممن يتجه تفكيرهم الى الانتحار ، ونفى الشيخ ذلك بشدة ..

وقال ردا على اسئلة الاحدب الاخرى انه لم يلاحظ على فتاته اى اعوجاج فى سيرها طيلة وجودها فى كنفه ، وان سيبر هو الذى اغراه بالحاقها بخدمة آل بيرش دون ان يفاتحه الشيخ فى شىء من ذلك ، كما انه كان كثير التردد على بيت تلك الاسرة اثناء وجود الفتاة به مع انه لم يكن ثمة غير سيدة عجوز لا تكاد تغادر فراشها .

كذلك قال الشيخ انه اطلع على مذكرات كان يكتبها مستر توايننج فى ذلك الحين ، ورأى فيها ان سيبر تحدث اليه مرارا من تلك الزيارات ، وانه قضى ليلة باكملها بذلك البيت .

وصرح الرجل بانه يتهم سيبر بافساد فتاته والتطويح بها الى هذا المصير الاليم .

ووقف بعده الشاهد التالى ، وهو كيميائى فى مدينة التون ؛ فشهد بان سيبر ابتاع منه زجاجة حامض الاوكساليك التى ابرزها له القاضى .

وجاء بعد ذلك دور سيبر ، فوقف وهو لا يكاد يستطيع الكلام؛ وتوابنتج ينفث سمومه فى اذن المحامى الاحدب ، وذلك المحامى البغيض يطارد صديقنا المسكين كما يطارد الذئب الجائع فريسته .

وراح الاحدب يسأله :

ـ هل طردت زوجتك الفتاة لانها اشتبهت فى وجود علاقة بينك وبينها ؟

ـ انظر هنا ...

ـ اجب عن سؤالى .

ـ حسنا .. ولكن انظر هنا ...

ـ حسنا يا سيدي .. اجب عن هذا السؤال اذن : اليس صحيحا ان زوجتك قد رفعت عليك دعوى الطلاق ؟

ـ انظر هنا ...

ـ انك لا تفتأ تطالبنى بالنظر هنا يا سيدى دون أن تقول شيئا، فهلا ادليت بجواب خير من ذلك ؟ لماذا ابتعت يا سيدى حامض الاكساليك من بلدة التون التى لا يعرفك فيها أحد ، وقد كان فى وسعك الحصول عليه من تيديورو ؟

ـ كنت اريد التمشى .. الرياضة .. الترويح عن النفس

ـ ولماذا ابتعته ياسيدى ؟

ـ طلبته منى أبتى لتنظيف قبعتى القش .

ـ واين هذه القبعة ؟

ـ سقطت فى البحر .. فى بريتون ..

ـ سقطت فى البحر ! التهمتك من هذا الشاهد ياسيدى القاضى .

ووقف بعده توابنتج وهو الشاهد الاخير ، واخذ ذلك الثعلب الماكر يدق آخر مسمار فى تابوت سيبر وهو يتظاهر بالتبرم والاسف لاضطراره الى الشهادة ضد زميله وصديقه ، وهنا دوى فى قاعة الجلسة صوت نسائى :

هذا كذب .. كذب دنيء سافل !

وسكت كل من بالمحكمة كان على رءوسهم الطير ، وهتف القاضى :

ـ كيف تتجاسرين على هذا ياسيدتى ؟ اخرجوا تلك المرأة من هنا !

بيد أن سيدة مهيبة الطلعة شقت الصفوف حتى وقفت امام المنصة وصاحت فى صوت مجلجل واضح النبرات : انى الليدى تايار . وليعد احد منكم الى يدا اذا استطاع وكل من هنا يعرفوننى . وقد علمت الآن بهذه المؤامرة الدنيئة السافلة ، وهانا اراكم تتعاونون فيما بينكم على قتله .

ثم اشارت الى توابنتج باصبعها وهى تقول : وانت .. انى لاقول لك بمشهد من هذه المحكمة ، ولك أن تتخذ ضدى ما تشاء من الاجراءات ، اقول لك انك كذاب منافق !

وسارت الى سيبر وكان قد تهالك على مقعده بعد أن سحقه ماصب على راسه من الوان الظلم والعسف ، ووضعت يديها عليه وهى تقول فى رفق وحنان :

ـ ماركو .. ماركو ..

ولكنه دفعها عنه وهو يصيح كالمجنون : دعينى .. ابتعدى .

وكانت هيئة المحلفين قد خلت للمداولة ثم عادت ، واعلن القاضى قراره وهو اعتبار الحادث انتحارا مع توجيه اللوم الشديد الى مستر سيبر .

وترنح سبير في مجلسه من هول الصدمة . وسرعان ما خلت القاعة .. فأخذ قبعته وعصاه وهب يريد الانصراف ، فأخرجه احد الشرطة من باب خلفي لئلا تفتك به الجماهير .

ولقد حاولت انا والليدي تايلر ان نصحبه ، ولكنه دفعنا عنه في عنف ، ورأيناه في حالة من الثورة والانفعال لايجدي معها الجدل ، فآثرنا ان نتبعه عن كثب .. ثم صادفتنا مركبة فأوحينا الى الحوذي ان يدركه ويعرض عليه الركوب .. وبعد ان يحمله الى بيته في بيني جرين يعود الينا في فندق رويال .

ثم قصدت الى الفندق مع الليدي تايلر حيث عرفتها بنفسي وأخلدنا نتناول الشاي . ولم يمض غير قليل حتى عاد الحوذي وأخبرنا انه ذهب بسبير الى بيته ، ثم وقف قليلا ليصلح عدة جواده واذا بسبير يندفع من البيت كالسهم النافذ ، ويثب الى المركبة طالبا اليه الاسراع به الى ادارة الشركة في ليدبورو .

وعجبنا من ذهابه الى الشركة .. فأسرعنا الى هناك ونحن في أشد القلق عليه » .

الفصل الخامس

عندما بلغ سبير بيته شعر برأسه تكاد ينفجر من فرط مالقي من الارزاء المتلاحقة ، وأراد التخفيف من نفسه بالتدخين ولكنه لم يجد علبة سجائره .. ثم مر بخاطره المكدود أن ايفي أخفتها مرة خلف الساعة في غرفته وطلبت اليه أن يبحث في ذلك المكان كلما فقد شيئا ومد يده ففتح الساعة ووجد العلبة هناك ، كما وجد شيا آخر معها ، هي ورقة مطوية كتب عليها اسمه بالقلم الرصاص .

لقد تركت الفتاة المسكينة رسالة له ، وما كانت تخفي العلبة في ذلك المكان الا عن قصد وتدبير .

وفتح سبير الورقة وقرأها ، واذا به يهتف : « ها ! » ثم راح يضغط الورقة بيده وهو يصيح : وقع في قبضتي ! وقع في قبضتي !

وعاد يقرأ الرسالة من جديد وهو يرجف رجفة عنيفة !

« عزيزي مستر سبير

« كنت راغبة اشد الرغبة في سفرك الى برايتون كي انفذ ماقر عليه رايي وعقدت عليه عزمي ، ان المضي في هذه الحال من المحال ، فما ارغب قط في فراق ولدي ، وما اطيق ان احملك فوق ماتحملت من اجلي ، ومن الخير ان ارحل بطفلي من عالم يعرض عنا ولا يرغب فينا . ولسوف ابسط امام الله عذري ، ولسوف أصف امام عرشه ما اوليتني من جميل ، وما تحملت في سبيلي من ظلم وعسف . وان قلبي ليفيض بالشكر لك ، والتقدير لصنيعك ، وليس في مقدوري أن أصف ذلك الشكر والتقدير . ولعلي استطيع بعد التكفير عن خطيئتي ان القاك في العالم الآخر لاعرب لك عن شكري » .

« وارى انه من حقك ان تعرف الآن وانا على وشك مفارقة الحياة ما كنت اكتمه عنك وعن الناس جميعا . ان والد طفلي هو هارولد توابننج ، فقد تعاهدنا على الزواج منذ زمن بعيد جدا ، ثم ذهب الى معسكر لتدريب الضباط في بورتموث حيث كنت أعمل عقب تركي بيتك ، وهناك وقع ذلك الأمر ، ورحل فجأة الى فرنسا دون ان يطلع اباه على ماحدث خوفا منه .

« واني لأرجو منك ان تنبيء هارولد باني قد صفحت عنه كما اسألك ان تبدي نحوه من الرفق والكرم ما ابديت نحوي ، وما تبديه نحو الناس جميعا ، والآن اودعك ، واسأل الله ان يباركك ويجزل لك المكافأة والمثوبة .

« ايفي »

وراح سبير يصيح من جديد : ها ! وقع في يدي ! وقع في يدي !

وتقلصت عضلات وجهه وارتسمت عليه آيات حقد هائل قاتل ، واخذ يهتف بصوت مدو : هارولد ! هارولد ! توابننج توابننج ! هارولد غلام بار ! هارولد مسيحي صالح ! ان هارولد لوغد أثيم ، وهو ابن وغد كذاب منافق سافل ! ساقبض على عنقه واصفع وجهه ، ثم احشو هذه الرسالة في حلقه !

وهرع الى الخارج فرأى المركبة لاتزال واقفة ، واستقلها وهو لاينفك عن مطالبة الحوذى بالاسراع الى الشركة .

وقصد الى غرفة توابننج راسا . واخذ يدنو منه متمهلاً وهو يحمل الرسالة بيده وفى عينيه بريق مرعب مخيف . وكان الرجل جالسا الى مكتبه وقد أحنى راسه ودفن وجهه بين راحتيه . وشعر بدنو سيبر عندما صار بجانبه فرفع اليه وجها تجلى فيه الأسى واغرقته الدموع ، وراح يغمغم فى مثل حشرجة المحتضر : قتل هارولد . ولدى هارولد ! انه لجميل منك ان تأتى يا سيبر لتعزيتى بعد ماقدمت اليك من اساءة بالغة فى المحكمة اليوم . قتل هارولد ! ولدى الوحيد !

انجابت من وجه سيبر سحائب الحقد والغضب ، وسرت فى عينيه نظرات التأثر والرحمة ، واخذ يواسى الرجل المنكود قائلا : هون عليك ياتوابننج ! انها ميتة مجيدة رائعة ! فى ذمة الوطن ! فى سبيل انجلترا ! لاتحزن ياصاح !

ودنا من الموقد فالقى الى النيران برسالة ايفى ، ثم انسل خارجا وفيما هو يجتاز الغرفة التى كانت له فيما مضى شعر بتخاذل فى اعضائه ، فجلس على مقعده ليستريح قليلا ولكنه لم يقو بعد ذلك على الوقوف .

واقبل القس فورشون فى تلك اللحظة يريد غرفة توابننج وما رأى سيبر جالسا حتى حملق فيه مزمجرا : مستر سيبر ، لابد لى من ان اصارحك ..

وكانت تونا وهابجود قد اقبلا فقال سيبر لصديقه فى صوت خافت :

ـ هابجود .. لقد حدث لى شىء . لا استطيع الوقوف . تونا . هابجود ..

والتفت هابجود الى فورشون الذى كان لا يزال يزمجر ودفعه وهو يصيح بحدة :

ـ الا قلب لك يارجل ؟ اسرع واحضر طبيبا .. اسرع ..

وقال الطبيب : انه مصاب بنزيف فى المخ ، وهو ينجو اذا وقف النزيف . هل عانى شيئا من الشدائد والانفعالات ؟

اجاب هابجود : شدائد .. انفعالات ! لقد كان المسكين فى اعماق الجحيم !

وقالت تونا وهى تهبط سلم مستشفى المقاطعة بعد نقل سيبر اليه : لقد كان سيبر مولعا ببيت شيلى « ايتها الريح .. اذا جاء الشتاء فهل يمكن ان يتأخر من بعده الربيع ؟ » وانى لاشعر ان الامور تؤذن بالتحول حتى وان قضى سيبر نحبه ..

الخاتمة

حصلت مابل على حكم بالطلاق ، وسرعان ماأقترنت بميليت الذى كان سيبر يدعوه النطاط .. وكان سيبر اثناء ذلك فى غمرات المرض لايدرى بشىء مما يحدث حوله ، وقد نقلته تونا الى مستشفى طبيب شهير من أصدقائها فى لندن حيث عكفت على تمريضه بنفسها .

وشاءت الاقدار ان ينجو ، كما شاءت أن تكون رحيمة به فلم يبق بذاكرته مما مر به من الاهوال غير مايبقى بذهن المرء من الكابوس الثقيل حين يستيقظ من النوم .

وفتح عينيه عندما ثاب اليه رشده فرأى تونا الى جانبه وقال فى صوت خافت :

ـ أانت هنا منذ زمن بعيد يا تونا ؟.

قالت : ان لى شهرين لم افارقك خلالهما لحظة .

ـ لقد مرت بى اشياء رهيبة هائلة ، ولا بد لى من الرحيل من كل مايذكرنى بها .

قالت : انها انقضت على كل حال . ولكن اتعلم علام عولت انا ؟

فنظر اليها مستطلعا ، وانحنت فوقه وهى تقول : لقد اعتزمت ان افعل ما كان يجب على فعله منذ زمن بعيد ..

وطوقته بساعديها ، فتعلق بها سيبر وهو يهتف في جذل وابتهاج : نونا ! .. حبيبتي نونا ! ..

« * »

في أحد الأيام تلقى سيبر بالبريد هذه الرسالة !

« قرأنا بالصحف نبأ قرانك السعيد بارملة اللورد تايلر ، وانه ليسرنا أشد السرور أن نعود الى خدمة سيدنا النبيل المحبوب ونحن في انتظار امرك لنا بالقدوم »

« ساره جنكس (المنبسطة) »

« ريبكاجنس (المنقبضة) »

(تمت)

هيئة قناة السويس

تحليل حركة الملاحة في القناة خلال ديسمبر سنة ١٩٦٢

الحركة الملاحية :

حققت السفن التي عبرت القناة خلال ديسمبر ١٩٦٢ زيادة قدرها ٧٢ سفينة اي بنسبة ٤٫٩٪ عن تلك العابرة خلال نفس الشهر من عام ١٩٦١ .

فقد بلغ عدد السفن العابرة خلال ديسمبر الحالي ١٥٦٢ سفينة مجموع حمولتها الصافية ١٦٬٤٧٠٬٦٩٨ طنا بمتوسط يومي قدره ٥٠٫٤ سفينة مقابل ١٤٨٩ سفينة حمولتها الصافية ١٥٬٧٦٦٬٩٦٨ طنا بمتوسط يومي قدره ٤٨ سفينة في ديسمبر ١٩٦١ .

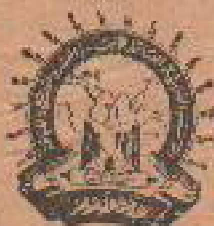
وعبرت القناة من الشمال الى الجنوب خلال الشهر الحالي ٧٥٩ سفينة مقابل ٧٢٤ سفينة في ديسمبر الماضي بزيادة قدرها ٣٥ سفينة ، ويرجع ذلك الى ان السفن المحملة قد زادت بمقدار ١٠ سفن (٣٩٠ مقابل ٣٨٠) وكذلك السفن الفارغة بمقدار ٢٥ سفينة (٣٦٩ مقابل ٣٤٤) .

وبلغ عدد السفن العابرة من الجنوب ٨٠٣ سفينة مقابل ٧٦٥ سفينة بزيادة قدرها ٣٨ سفينة ، وهذا نتيجة لزيادة السفن المحملة بمقدار ٢٥ سفينة (٧٤٨ مقابل ٧٢٣) والسفن الفارغة بمقدار ١٣ سفينة (٥٥ مقابل ٤٢) .

الحمولة الصافية :

زادت الحمولة الصافية للسفن التي عبرت القناة خلال ديسمبر الحالي مقارنة بمثلها في ديسمبر الماضي بمقدار ٧٠٤٬٠٠٠ طن أي بنسبة ٤٫٥٪ (١٦٬٤٧١٬٠٠٠ طن مجموع حمولتها في ديسمبر ١٩٦٢ مقابل ١٥٬٧٦٧٬٠٠٠ طن في ديسمبر ١٩٦١) .

وبتقسيم الحمولة الصافية طبقا لاتجاهي العبور ، يتضح انها حققت زيادة في كلا الاتجاهين ، فقد بلغت الحمولة الصافية للسفن العابرة من الشمال الى الجنوب خلال الشهر الحالي ٨٬٠٨٠٬٠٠٠ طن مقابل ٧٬٩١٦٬٠٠٠ طن خلال نفس الشهر من عام ١٩٦١ أي بزيادة قدرها ١٦٤٬٠٠٠ طن ، وذلك نتيجة لارتفاع الحمولة الصافية للناقلات الفارغة ، وبلغت بالنسبة للسفن العابرة من الجنوب الى الشمال ٨٬٣٩١٬٠٠٠ طن مقابل ٧٬٨٥١٬٠٠٠ طن أي بزيادة قدرها ٥٤٠٬٠٠٠ طن ، وتعود تلك الزيادة الى ارتفاع الحمولة الصافية بالنسبة لجميع انواع السفن عدا سفن البريد .



الدار القومية للطباعة والنشر
١١١ شارع الصحافة ـ القاهرة



مطابع الدار القومية

١٥٢ شارع [illegible] - روض الفرج

تليفون ٤-٧٥٣١ - ٤٢٠١٤
٤-٨٠١ - ٤٠٨١١

العدد ٣٢٠

الثمن ٤ قروش